مَوْسُوعَةُ

فَوَائِدِ القُرآن الزكِيَّة

سُورَةُ يُونُس

أ.د خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

موسوعة فوائد

القرآن الزكية

سورة يونس

أ.د. خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

فوائد سورة يونس

﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ١ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ ٢ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٣ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلۡقِسۡطِۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ٤ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٥ إِنَّ فِي ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَّقُونَ ٦ ﴾

ابتدأت سورة يونس عليه السلام بِمِثْل ما ابتدأت به سورة البقرة، وبعض سور القرآن الكريم من الحروف المقطعة، قال تعالى ﴿ الٓر ﴾ وهي ثلاثة حروف مقطعة، يعجز عن إدراك دلالتها الإنسان، ليقف مذهولاً أمام ثلاثة أحرف، لا يعرف عنها شيئاً، وليقف على أسلوب لم يسمع به من قبل، ولم يخطر هذا البناء اللفظي بباله، مما يدفعه شوقاً لمتابعة ما بعدها. وأما عِلْمُ معناها ومرادها فعند الله تعالى، فهي سِرٌّ من أسرار الله تعالى في كتابه، ونؤمن بها، ونقرؤها كما جاءت. وهي من الذي لا يُفَسَّر. وقد تم ذكر بعض فوائد ذلك في سورة البقرة ولله الحمد والشكر، وهناك من اجتهد في معناها ودلالتها، فقد ذكر ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى وغيره، عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، في معنى ﴿ الٓر ﴾ أي: أنا الله أرى. وقال آخرون: هي

حروف من اسم الله الذي هو **(الرحمن)** فقوله تعالى ﴿الٓر﴾ و﴿حمٓ﴾ و﴿نٓ﴾ حروف **(الرحمن)** مقطعة.[١]

ومن فوائد ذلك أنها محك واختبار لمن يؤمن ويُقر بها كما جاءت، وأما الوقوف على فوائدها، فقال جمع كبير من العلماء: بل يجب أن نتكلم فيها؛ ونلتمس الفوائد التي تحتها[٢] فمن فوائد ذلك شد الانتباه، قال قطرب عن العرب: أنهم كانوا ينفرون عند سماع القرآن، فلما سمعـوا ﴿الٓمٓ﴾ و ﴿الٓمٓصٓ﴾ استنكروا هذا اللفظ، فلما أنصتوا له صلى الله عليه وسلم، أقبل عليهم بالقرآن المؤتلف ليثبته في أسماعهم وآذانهم، ويقيم الحجة عليهم.[٣] مما يبين قوة تأثير إطلالة السورة بهذه الحروف على السامعين.

فلما نزلت هذه الحروف المقطعة بَقَوا متحيرين، فقد خاطبهم بما لا يفهمون، لِيُقبلوا على استماعه، لأن النفوس تتطلع إلى ما غاب عنها معناه، فإذا أقبلوا إليه خاطبهم بما يفهمون، فصار ذلك كالوسيلة إلى الإبلاغ، إلا أنه لا بد له من معنى يعلمه غيرهم، ويكون معلوماً عند المُخَاطب. فهذا الكلام يعم جميع الحروف[٤] وهذا يُفيد أهمية التشويق في التعليم، وأهمية لفت الانتباه، وشد ذهن المتعلم لما يُراد تعليمه إياه، وإخباره به، وإشعاره بحاجته لما سيسمعه، حتى يعلم ما فيه من علم ومعرفة، أو نصيحة، أو غيرها مما يُراد نقله إليه.

وبعد أن ذكر الله تعالى ما استفتح به من الحروف المقطعة، يُشيد سبحانه وتعالى بآيات القرآن الكريم، والثناء عليها بما اتصفت به من الأوصاف الحكيمة العظيمة ﴿تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ فهذه آيات القرآن الْمُحْكَم المبين، فهو مُحكم من الباطل، والخلل، والاختلاف، والتعارض، وقد حكم الله تعالى فيه بالعدل، فأحكامه جميعها عدل، لا جور ولا ظلم فيها، بل هي كمال العدل وأحسنه. وأن أحكامه واضحة جلية، قد أوضح الله تعالى فيها الحلال والحرام، وفَصَّل الحدود والأحكام، وأوضح فيه الأخلاق والإحسان. وفي هذا النص الكريم ﴿تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ إيجاز وإعجاز بياني في وصف القرآن الكريم بصفة ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ التي قد استجمعت كمال الوصف والثناء على حقيقة ما تضمنه القرآن الكريم، ولما اتصف به مضمونه ومحتواه بالْمُحْكَم المبين. وفي هذا إعجاز وتحدي بأن يأتوا بمثله من الحجج المحكمة، أو يثبتوا أنه غير محكم وخالي من الحجج والبراهين

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٢/١٠٣-١٠٤)

(٢) القرطبي، لجامع لأحكام القرآن (١/١٠٩)

(٣) المرجع السابق (١/١٠٩)

(٤) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١/١٧)

البينة الظاهرة، فقد انتفى عن هذا الكتاب الباطل والخلل والتعارض والاختلاف، فليس بعد هذا البيان أبلغ منه آية وحجة لكل ذي عقل سديد رشيد.

ثم بعد إيجاز البيان عن عظمة هذا القرآن الكريم، يأتي التساؤل الاستنكاري لتعجب الناس عن إيحاء الله تعالى لرجل من جنسهم، ممن يعرفون من الرجال حق المعرفة. فقال عَزَّ وجل ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ ينكر الله تعالى على من تعجب من إيحاء الله تعالى لرسولٍ إليهم من جنسهم، أكان إيحاؤنا محل عجب من الناس؟ ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ ﴾ مما يفيد التقريع والتوبيخ لهم من هذا التعجب الحاصل منهم، لأن ليس هناك وجه للعجب في هذا. فهو رجل منهم ﴿أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ ﴾ فهو منهم، يعرفون أمانته، وصدقه، واستقامته، ولغته، فليس هو مظنة اتهام البتة، فهذا النبي صلى الله عليه وسلم يحمل أمرين: الأول: أنه منذر ﴿أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ ﴾ فينذر الناس من عذاب الله تعالى لمن كفر وصد عن سبيله عَزَّ وجل، والأمر الثاني: أنه مبشر ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ فيبشر بما أعده الله تعالى لمن آمن وأطاع واتبع ما جاء عن الله سبحانه وتعالى من المغفرة والجنان.

ومن جميل البيان في البشارة عمق معانيها وسعة دلالتها ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أن لهم جزاء أعمالهم الصالحة، من الصلاة والصيام والصدقة والتسبيح وتلاوة القرآن وغيرها، وأن هذا الثواب العظيم سيكون لهم ﴿عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ مما يفيد ويدل على الحفاوة بهم والتكريم، بأن لهم حظوة عند الله تعالى، وكذلك دلالة قوله تعالى ﴿ قَدَمَ صِدْقٍ ﴾ قال القرطبي رحمه الله تعالى: وحقيقته أنه كناية عن السعي في العمل الصالح، فكنى عنه بالقدم، كما يُكنى عن الإنعام باليد، وعن الثناء باللسان، يريد سابقتهم بإخلاص الطاعة، وقال أبو عبيدة الكسائي: كل سابق من خير أو شر فهو عند العرب قَدَم، يُقال: لفلان قدم في الإسلام، له عندي قدم صدق، وقدم شر، وقدم خير[١] وقيل عن دلالتها: أن لهم سابق صدق في اللوح المحفوظ من السعادة، وقال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى، وأولى الأقوال بالصواب: أن لهم أعمالاً صالحة عند الله، يستوجبون بها منه

---

(١) القرطبي، لجامع لأحكام القرآن (١٩٦/٨)

الثواب[١] وقال الزجاج رحمه الله تعالى: قَدَم الصدق: المنزلة الرفيعة[٢] فقد استوعب قوله تعالى ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ما قدموه من أعمال صالحة، وما أعده الله تعالى لهم في الآخرة من السعادة الأبدية، وهذا من عمق دلالة السياق وبيانه وإعجازه، بأن استوعب تظافر المعاني المترابطة، والمترتبة على بعضها البعض. فاشتمل النص البياني على دلالة العمل في الدنيا، وعظيم ثوابه في الآخرة.

ومن جميل البيان ما ذكره ابن الجوزي رحمه الله تعالى: أن القدم ذُكِرت ها هنا للتقدم، لأن العادة جارية بتقَدُّم الساعي على قدميه، والعرب تجعلها كناية عن الذي يُتَقَدَّم فيه، ولا يقع فيه تأخر، ووجه إضافة القدم إلى الصدق، أن ذلك مدح للقدم، وكل شيء أضفته إلى الصدق، فقد مدحته[٣] ليدل ذلك على أنهم قدموا لآخرتهم التصديق بالرسول صلى الله عليه وسلم، وصدق الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورُسُله وباليوم الآخر، فَصَدَّقُوا، وصَدَقُوا فيما عاهدوا الله تعالى عليه، فكان ذلك قدم صدق لهم، قد قدموه لآخرتهم. فجمعت دلالة ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾ مجامع الأعمال الصالحة التي قدموها لآخرتهم، فتقبلها الله سبحانه وتعالى بفضله، ونسب تقديمها إليه، لتفيد الإخلاص منهم له عَزَّ وجل، ولتفيد بيان وتأكيد ما أعده الله تعالى لهم عنده في الآخرة، ولتفيد الحفاوة بهم وبها ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ وفي هذا تكريم لهم بأن جعل منزلتهم عنده جَلَّ جلاله، ونسبها إليه تبارك وتعالى.

ثم ذكر عَزَّ وجل قول الكافرين ﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾ فمع أنه تبارك وتعالى بعث إليهم رسولاً من أنفسهم، ليس من الملائكة فيستنكرونه، وليس غريباً لا يعرفونه، بل من جنسهم إلا أنهم افتروا في حقه بالوصف الذي لا يليق، فاتهموه بالسحر، بل تجاوزوا في نعتهم له من الاتهام بالسحر إلى درجة المبالغة في التهمة بأنه ﴿لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾ فكلمة ﴿مُّبِينٌ﴾ تفيد التأكد الذي لاشك فيه بأنه ساحر، فقالوا ﴿لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾ فهو ظاهر وبين السحر، وواضح وضوحاً لا شك ولا ريب فيه، وهذا من التمادي في الافتراء. مما يفيد أن الكاذب لا يتوانى ولا يتردد في المبالغة، فاعتماده الكذب يُهَوِّن عليه تلبيس الكذب بتمام الافتراء، والمبالغة في التهمة والتزوير.

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٢/١١٠-١١١)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٤/٥)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٤/٦)

ثم يُخبر ويُذَكِّر اللهُ تعالى عموم عباده بجلالته وعظمة خلقه وتدبيره ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ فبدأ البيان الالهي بإثبات الربوبية، من أنها لله تعالى ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ﴾ أي هو المالك والخالق والمتصرف، الذي يجب أن يُعبد وحده لا شريك له، وكذلك أثبت خلقه للسماوات وما ارتفع فيها، والأرض وما عليها ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ فلحكمته تبارك وتعالى خلق السماوات والأرض في ستة أيام، وهو قادر على خلقها في لحظة واحدة. ومن فوائد ذلك ما قاله الأنباري رحمه الله تعالى: أنه أراد أن يُوقع في كل يوم أمراً تستعظمه الملائكة، ومن يشاهده. وقيل: أن التثبت في تمهيد ما خُلق لآدم وذريته قبل وجوده أبلغ في تعظيمه عند الملائكة، وقيل: أن التعجيل أبلغ في القدرة، والتثبيت أبلغ في الحكمة، فأرادا إظهار حكمته في ذلك، كما يُظهِر قدرته في قوله ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾[1] ليتحقق بهذا عظيم قدرته، وعظيم حكمته سبحانه وتعالى. ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ والعرش أعظم المخلوقات وسقفها. فبعد خلقهن استوى على عرشه جَلَّ جلاله. استواء يليق بجلاله وعظمته وسلطانه، وهو العرش الذي يسع السماوات والأرض، وما فيهما، وما بينهما، استواء يليق بعظمته وجلاله وقوة سلطانه سبحانه وتعالى.

وقد بدأ سبحانه وتعالى هذا البيان الكريم بتأكيد خلقه للسماوات والأرض بحرف التأكيد ﴿ إِنَّ ﴾ ثم تلاه إثبات الربوبية ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ﴾ ثم لفظ الجلالة ﴿ ٱللَّهُ ﴾ الذي أفاد التعظيم والجلال. فهو الذي أنشأ السماوات والأرض، وكلمة ﴿ خَلَقَ ﴾ تفيد معنى الإيجاد والإنشاء ابتداء، وفي هذا لفت الانتباه إلى عظيم مخلوقات الله تعالى، وسعتها ورحابتها، ثم أخبر عن مدة خلقها ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ ذكر ابن جرير وغيره رحمهم الله تعالى: أن الأيام الست هي: يوم الأحد، والإثنين، والثلاثاء، والأربعاء، والخميس، وجُمع الخلق في يوم الجمعة[2] وفي يوم الجمعة خُلق آدم عليه السلام، ويوم السبت لم يقع فيه خلق، لأنه اليوم السابع، ومنه سُمي السبت، وهو القطع[3] ولله تعالى الحكمة في تقدير ما يشاء من الأيام والأوقات، وهو قادر على خلق ما خلق في لحظة، ولكن ليظهر للخلق بهذا التدبير حكمته وحلمه، سبحانه وتعالى، فله الملك، وله الحكمة في عدد تلك الأيام، وفي كل أمر وشأن.

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٤٣/٣)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٤٥/١٠)

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢٢٩/٢)

ثم قال تعالى ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ قال السعدي رحمه الله تعالى: ﴿ٱسۡتَوَىٰ﴾ تبارك وتعالى ﴿عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ العظيم، الذي يسع السماوات والأرض، وما فيهما، وما بينهما، استواء يليق بجلاله وعظمته وسلطانه[١] والإنسان بطبعه يستوعب دلالة النص، ولكن لا يستطيع أن يدرك هيئة وصورة ما غَيَّبَهُ اللهُ تعالى عنه، وهنا تأتي حقيقة الإيمان بالغيب من غير تكييف، ولا تشبيه ولا تمثيل، ولا تعطيل. فإن الله تعالى ليس كمثله شيء، كما قال جَلَّ ثناؤه في سورة الشورى ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ فليس هناك شبيه ولا مثيل لربكم في كل شيء، فاستوعب النفي إثبات الكمال الذي لا يُقاس بأحد من خلقه، واستوعب النفي المماثلة في الخلق والإيجاد والتدبير والقهر والسلطان، وفي الأسماء وفي الصفات الجليلة. ليتعلم العبد بهذا البيان ألا يقيس صفات وأفعال الله تعالى وقدرته على شيء من خلقه.

ثم يخبر الله تعالى بعظمة تدبيره وتصريفه لملكه جَلَّ جلاله ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ﴾ فإنه عَزَّ وجل يصرف أمر الخلائق بحكمة بالغة فيما يقضيه ويمضيه ويأمر به، ولا يشغله شأن عن شأن، ومن بلاغة البيان وغزارته أن جاء ﴿ٱلۡأَمۡرَ﴾ عاماً، ليستوعب ويشمل جميع تدبيره، وكل شأن وأمر يقضيه جَلَّ في علاه. ومن كمال سلطانه قوله تعالى ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦ﴾ فإنه لا يشفع عنده شافع يوم القيامة في أحد من خلقه إلا من بعد أن يأذن له في الشفاعة فيه، فيرضى سبحانه وتعالى بتلك الشفاعة. ليتبين أنه الْمَلِك والرب المتصرف كيف يشاء، فلا أحد يضاده في قضائه، ولا يتعقب تدبيره أحد، ولا يتجرأ عليه أحد ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ﴾ فالذي هذه صفاته وقوته وسلطانه وحكمه وحكمته وعظمته هو ربكم.

فأفاد بيانه عَزَّ وجل: تبصير العباد بحقيقة الخلق، وبيان جهل من عبد معبوداً غيره، فإن كل معبود سواه مسلوب القدرة والإرادة. وفي هذا بيان وإثبات وتعليم للعباد بحقيقة الربوبية والألوهية، بأنها حق لله تعالى وحده لا شريك له، وكذلك نفي لكل معبود من دون الله تعالى ﴿فَٱعۡبُدُوهُ﴾ فالزموا عبادته، ووحدوا عبادتكم للذي هذه صفاته جَلَّ جلاله، وهذا عظيم ملكه وقدرته عَزَّ وجل، فليس لكم حجة تقوى على ما عَلَّمَكم الله تعالى. ثم يختم تبارك وتعالى الآية الكريمة بسؤال استنكار لمن لم يتعظ بذلك، فقال عَزَّ وجل ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾

---

(١) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١١٨/٢)

أفلا تتعظون بهذا البيان وهذه الموعظة، وتعتبرون بهذه الآيات والحجج العظام، فَتُذْعِنُون لله تعالى بتوحيده، وإفراده بالعبادة لا شريك له، وبكمال طاعته.

وجملة ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ تفيد أهمية التأمل والتفكر، وإمعان العقل بالتدبر فيما ذكره الله تعالى لكم، وهي تفيد التقريع والتوبيخ لمن لم يتعظ، وهو سؤال استنكاري لمن كفر وجحد، كيف لا تتعظون وقد جاءتكم البينات والحجج الواضحة الباهرة، أين عقولكم؟ ما الذي يمنعكم من ذلك؟ غير الأشر والكبر والفسوق على من اختاره الله تعالى منكم نبياً ورسولاً. وفي هذا تناسب وتعاضد مع مطلع السورة الكريمة ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ مما يبين إعجاز الترابط بين آيات الله تعالى، وقوة بيانه، وبلاغة كلامه سبحانه وتعالى، وعظمة دلالات القرآن الكريم.

وفي تدرج بياني وتعليمي وتوجيهي عظيم ينتقل السياق إلى نهاية حياة العباد وختامها، بأنها ستكون إليه ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾ فإليه مصيركم يوم القيامة أيها الناس، وهو وعد حق، لا شك ولا ريب فيه أبداً، ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾ وهذا تأكيد المصير بأنه حق كائن لا شك ولا ريب فيه، وأن نهاية الدنيا إليه سبحانه وتعالى، مما يتأكد بهذا البيان المرجعي إلى الله تعالى أن هناك بعث بعد الموت، ففي هذا دليل على البعث بعد الموت، وأن هناك حساب وجزاء.

ومن جميل أسلوب السياق وقوة بلاغته: التدرج البياني الذي بدأ بتزكية القرآن تزكية كمال وإعجاز، بأنه مُحكم من الباطل والخلل والاختلاف والتعارض، وأن الله تعالى قد حكم فيه بالعدل، فلا تجد في أحكامه جَوراً ولا ظلماً ولا حيفاً، بل تجد أن أحكامه جميعها كمال العدل وأحسنه. ثم يتدرج التوجيه الكريم إلى معالجة أمر الشك في نبوة النبي صلى الله عليه وسلم بأوجز بيان، وأقوى استدلال ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ثم يتدرج السياق إلى بيان ما خلق وأوجد سبحانه وتعالى، وذلك بلفت أنظارهم وحواسهم لما يبصرون من السماوات والأرض، وما لا يبصرون ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ والذي أعظمها عرش الرحمن، مبيناً سبحانه وتعالى عدد الأيام التي خلق فيها الخلائق، لإدراك حكمته وعظيم سلطانه، ثم يتدرج بعد بيان الحجج إلى ما يجب عليهم من عبادة الله تعالى وتوحيده ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾ ثم ينتقل إلى نهاية العباد ومصيرهم بعد الموت ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾

ويأتي بعد إثبات المرجع والمصير، وما يتطلبه من البعث بعد الموت، إلى بيان دليل ذلك المرجع والمصير من خلال القياس ﴿إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ فالذي خلق الخلق ابتداء، قادر على إعادته بعد الفناء، فهو الذي بدأ الخلق ولم يكن شيئاً، فأنشأه ابتداء، ثم يعيده بعد الموت، بمثل ما بدأ خلقه وأنشأه من العدم، فأين الصعوبة والاستحالة في ذلك؟ فإن الذي خلق الخلق وأوجده ابتداء من العدم، قادر على إعادته بعد الموت كما بدأه، فأين وجه الغرابة والاستحالة؟ وفي هذا تعليم وتربية وغرس للإيمان بالغيب، قياساً على الواقع المشاهد والمحسوس. وهذا من حكمة الله تعالى ورحمته بعباده، أنه يُقرِّب إليهم الصورة والحقيقة بتنويع الأساليب، والتي منها القياس. مما يفيد أهمية القياس في تقريب المعنى، وتأكيد الحقيقة عند التعليم والتوجيه، وإقامة الحجة.

ثم يبين سبحانه وتعالى علة وسبب إعادة الخلق بعد الموت ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلۡقِسۡطِۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾ فيجازي المؤمن بالعدل، والجزاء الأوفى، الذي لا نقص ولا مخالفة لقيمة العدل فيه، وقد وصفهم بصفتين عظيمتين ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الصفة الأولى: الإيمان، المتضمن لكمال التصديق بالله رباً وبمحمد نبياً وبالإسلام ديناً، وبالبعث بعد الموت والجزاء والحساب، والجنة والنار، والصفة الثانية: عمل الصالحات، لتشمل جميع ما أمر الله تعالى به من الفرائض وغيرها، وأما الذين كفروا فيقول الله تعالى عن جزائهم ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾ فالذين كفروا يُعَذَّبُون بشراب شديد الحرارة، وبغيره من العذاب الأليم، بسبب كفرهم بالله تعالى وبرسوله صلى الله عليه وسلم. ومن دقة البيان أن جاء لفظ العذاب نكرة ﴿وَعَذَابٌ﴾ ليفيد التنوع والشمول لكل أصنافه، ومن شدة هذا العذاب أنه موجع وشديد في ألمه وأثره ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ﴾

ثم بعد هذه البشارة للمؤمنين، والتحذير للكافرين، يدعو الله تعالى عباده إلى التأمل والتفكر في مخلوقاته، التي تدل على أن هذا الخالق لها هو الله تعالى، رَبَّ كل شيء ومليكه، فيلفت انتباههم لبعض مخلوقاته سبحانه وتعالى ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ فهو الذي أنشأ الشمس من العدم، لتكون ضياء بوهجها وأشعتها، فيصبح النهار واضح المعالم، فيقضي فيه العباد مآربهم وحاجاتهم، بينما جعل القمر نوراً ﴿وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا﴾ لينتفع العباد بشعاعه على قدر حاجتهم، وليكون شعاعه مناسباً لليل

الذي جعله الله تعالى سباتاً، فينامون فيه النوم الهادئ الطويل، بما يكفيهم ويريحهم. فإن الضياء أكثر إيضاحاً وبياناً لما يقع عليه الضياء، والنور أقل منه شعاعاً، لتكونا آيتين مختلفتين في الإضاءة والنور. قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: فالضياء ما يضيء الأشياء، والنور ما يبين فيخفى[١] وهما آيتان عظيمتان، ونعمتان كبيرتان قد امتن الله تعالى بهما على عباده أجمعين. ومن جميل البيان ودقته، أن سمى الله تعالى نور الشمس ضياء، بينما نور القمر أو شعاعه بالنور، قال الشوكاني رحمه الله تعالى: قيل: الضياء أقوى من النور، وقيل: الضياء ما كان بالذات، والنور ما كان بالعرض، ومن هنا قال الحكماء: إن نور القمر مُستفاد من ضوء الشمس[٢]

ثم يخبر الله تعالى بدقة حركة هذا الجرم، وما جعل في حركته من المنافع ﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَ﴾ فقدر وهيأ ويسر سبحانه وتعالى للقمر منازل. وقال الفراء رحمه الله تعالى: إن شئت جعلت تقدير المنازل للقمر خاصة، لأن به تُعْلَم الشهور، وإن شئت جعلت التقدير لهما، فاكتفى بذكر أحدهما عن صاحبه. وقال ابن قتيبة رحمه الله تعالى: منازل القمر ثمانية وعشرون منزلا، من أول الشهر إلى ثمان وعشرين ليلة، ثم يستتر، وهذه المنازل هي النجوم التي كانت العرب تنسب إليها الأنواء[٣] وقال ابن كثير رحمه الله تعالى: يخبر تعالى عَمَّا خلق من الآيات الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه، أنه جعل الشعاع الصادر عن جرم الشمس ضياء، وجعل شعاع القمر نورا، هذا فن، وهذا فن آخر، ففاوت بينهما لئلا يشتبها، وجعل سلطان الشمس بالنهار، وسلطان القمر بالليل، وقدر القمر منازل، فأول ما يبدو صغيراً ثم يتزايد نوره، وجرمه، حتى يستوسق، ويكمل إبداره، ثم يشرع في النقص، حتى يرجع إلى حالته الأولى في تمام الشهر ﴿وَقَدَّرَهُۥ﴾ أي القمر ﴿مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَ﴾ فبالشمس تُعرف الأيام، وبسير القمر تُعرف الشهور والأعوام[٤] مما يبين أهمية التأمل، ولفت الانتباه نحو مخلوقات الله تعالى، ففيها من الآيات ما يحقق الإيمان ويقويه ويُثبته بقدرة الله تعالى وفيض كرمه وإحسانه.

ثم يخبر الله تعالى بحكمة ذلك الخلق ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ فخلق عَزَّ وجل ذلك إظهاراً لقدرته وحكمته، ودلالة على عزته، وكمال علمه، وعظيم إبداعه الذي يستوجب من عباده طاعته، فخلق ذلك للحق الدال على وحدانيته، وأنه ربّ كل شيء ومليكه، فلم يخلقه عبثا، بل بالحق.

---

(١) القرطبي، لجامع لأحكام القرآن (١٩٧/٨)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٤٢٥/٢)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٨/٤)

(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤٢٢/٢)

ومن جميل البيان حصر علة خلقه لخلائقه بالحق والصواب، لينتفي عنه الباطل والعبث وكل صفة مخالفة للحق. ثم قال تعالى ﴿ يُفَصِّلُ ٱلْآيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ يبين الحجج والبراهين بأكمل بيان، ليعلم ويعرف بها العباد أن هذه المخلوقات العظيمة والآيات الباهرة مخلوقة من الخالق سبحانه وتعالى الذي لا يستحق العبادة إلا هو وحده لا شريك له ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ والقوم الذين يعلمون: هم الناس الذين زودهم الله تعالى بحواس وجوارح العلم التي يدركون بها دلالة تلك الآيات، فلم يخلق تلك الآيات لقوم مسلوبي الفكر والتفكر والفهم والفقه، بل لقوم يعلمون ما يُقال لهم. وهذه الصفات البشرية حجة عليهم، فإنه مقابل صفات العلم التي مكنهم منها، فهناك المعلوم من الآيات والحجج والبراهين الدالة على عظيم قدرته ووحدانيته سبحانه وتعالى. مما يفيد الانسجام والقدرة على التفاعل بين هذا الإنسان وبين ما خلق الله سبحانه وتعالى. مما يفيد أيضاً أهمية الالتفات إلى مخلوقات الله تعالى، وتدبرها، والتفكر فيها، فإنها تقوي الإيمان، وتقوي علاقة العبد بربه، لما فيها من قوة البيان المحسوس، وكذلك قوة البيان المقروء والمسموع من القرآن الكريم. وتظهر هنا أهمية ذلك في التربية والتعليم.

ثم ينتقل الاستدلال إلى دقائق مما خلق الله تبارك وتعالى ﴿ إِنَّ فِى ٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾ ففي تعاقب الليل والنهار آية، وفي اختلاف صورة وشكل وضوء الليل عن النهار آية أخرى عظيمة، وفي السياق لفت الانتباه إلى جميع أوجه الاختلاف بين الليل والنهار، من حيث البرودة والحرارة، والظلمة والنور، والطول والقصر، وولوج الليل في النهار، وولوج النهار في الليل، وما يمكن أن يكون في النهار، وما يمكن أن يكون في الليل من سعي العباد، ومن النوم، والكسب، وما يظهر في الليل من النجوم، واختفائها في النهار، وظهور الظلال بأطوالها ومساحاتها، وتقلصها في الظهيرة حتى يصبح ظل كل شيء تحته، ثم تَمَدُّدُهَا حتى يغطيها الليل بسواده وهجعته، فإنها آيات دالة على عظمة الخالق العظيم سبحانه وتعالى.

ثم يلفت الله تعالى علم العباد وانتباههم إلى عموم خلقه ﴿ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾ وفي هذا تعميم في لفت الانتباه إلى عموم ما خلق الله تعالى من مخلوقات في السموات والأرض، وكذلك الاختلاف بين تلك المخلوقات، من ارتفاع السماء، وبسط الأرض، وعلو السحاب، الذي منه كالجبال، وبُعد جبال السحاب وقرب الجبال في الأرض، وما فيها من حجارة وصخور، وأشكال وأحجام، لا يكاد يشبه بعضها بعض، وما أنعم الله تعالى على الإنسان بمكنوناتها واستخدامها، فسخرها له مع هولها وعظمتها، فأفاده من أحجارها، وما فيها من النحاس والذهب والفضة والحديد وغير ذلك، وهداه وعلمه كيف يستخرجها من تلك الجبال الصماء، ومن آياته ما ينزل من السماء من الماء الذي يُحي به الأرض الميتة، ويزداد

بها منسوب مياهها، وما تحتفظ به الأرض من الماء في جوفها، وما يجري على سطحها من الجداول والأنهار، وما فيها من المحيطات والبحار، واختلاف الأشجار والأعشاب والنباتات، فمنها ما هو طعام للإنسان، ومنها ما هو طعام للأنعام، ومنها ما هو أدوية للأمراض، وغير ذلك مما لا ينقضي مجال التفكر فيه، وتعداده وحصره، فكل ذلك ﴿لَأَيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَتَّقُونَ﴾ فجميع تلك الآيات هي لمن أراد أن يتقي عذاب الله تعالى، بترك الشرك والمعاصي، والانقياد لله تعالى ولرُسُله وخاتمهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وما نزل عليه من القرآن الكريم والسنة المطهرة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ۞ وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ لَقُضِيَ إِلَيۡهِمۡ أَجَلُهُمۡۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡمُسۡرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾

بعد بيان الله تعالى للحجج والآيات الباهرة العظيمة على ربوبيته وألوهيته ووحدانيته عَزَّ وجل، ينتقل السياق الكريم إلى بيان حال الذين لا يتعظون بتلك الآيات، فقدموا أمور الدنيا على الآخرة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾ يبين الله تعالى حال من كفر، فاتصفوا بصفات الكفر والشقاء، فإن صفتهم الأولى: ﴿لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾ أي: أنهم لا يؤمنون بالبعث بعد الموت، وبالتالي لا يخافون لقاء الله تعالى، ولا يؤملونه، ولا يطمعون فيه، فكذبوا به. والصفة الثانية: ﴿وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي: أنهم استعاضوا عن الآخرة بالدنيا، فارتضوا بها مقاماً ونهاية، فصارت أعمالهم لهذه الدنيا فقط، وتركوا العمل للآخرة، والصفة الثالثة: ﴿وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا﴾ أي: استأنسوا وفرحوا بها، فسكنوا إليها سكون الواثق بها. والصفة الرابعة: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾ أي:

أنهم عن أدلة الله تعالى وحججه وبراهينه وآياته غافلون، فلا يعتبرون بها ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ فهؤلاء مرجعهم ومصيرهم الذي سيؤولون ويأوون إليه هو نار جهنم ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ بسبب ما اكتسبوا في الدنيا من اعتقادهم الباطل وما ترتب عليه من أعمال الكفر. فهذه مكسبهم التي تحصلوا عليها، وطلبوها وجنوها بأنفسهم، فقد أوصلتهم النار بإرادتهم، مما يبين أن الله تعالى لم يظلمهم، بل أرسل لهم الرسل، وظهرت لهم الحجج والآيات البينات، ولكنهم أبوا إلا أن ينشغلوا بما جعل مأواهم ومصيرهم إلى النار.

ثم ينتقل البيان الرباني الكريم إلى إيضاح حال من أطاعه سبحانه وتعالى، فعمل للآخرة. فقال الله عَزَّ وجل ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ فهؤلاء المهتدون المطيعون، قد حصل منهم خلاف ما حصل من الكافرين، فقد آمنوا بالله تعالى وصدقوا برسوله صلى الله عليه وسلم والمرسلين أجمعين، وبما جاءهم من عند الله تعالى، وكذلك قاموا بالأعمال الصالحة التي شملت العبادات، وما يحبه الله تعالى ويرضاه. فهؤلاء لهم من الله تعالى الهداية والتوفيق في الدنيا، وفي الآخرة بدخول الجنة، وذلك بسبب إيمانهم وما يتبعه من الطاعة والامتثال.

فقد أظهر الله تعالى العلاقة بين الهداية والتوفيق وبين الإيمان حيث قال عَزَّ وجل ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ﴾ فبسبب الإيمان تحققت لهم الهداية والتوفيق الذي أدخلهم وأصلهم الله تعالى به الجنة. الموصوفة بأنها ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ تجري أنهار الجنة من بين أيديهم، فيرون مياهها تنساب من بين البساتين والزروع التي أنعم الله تعالى بها على أهل طاعته. وهذه الجنة موصوفة بتحقق النعيم فيها ﴿ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ فهي جنات كثيرة، قد اتصفت بالنعيم الذي لا يزول ولا يحول، وقد انتفت منها كل ما هو ضد النعيم، من التعب والنصب والمرض والشقاء.

وأما حال أهل الجنة عند دعائهم فهو كما بينه جَلَّ ثناؤه ﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ ﴾ أي: دعاؤهم واستدعاؤهم لما يشتهون هو: ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: كلما اشتهى أهل الجنة شيئاً قالوا ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ ﴾ فيأتيهم ما يشتهون، فإذا طعموا قالوا ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ

ﭐلۡعَٰلَمِينَ ﴾ فذلك آخر دعواهم[١] وقال ابن جريج رحمه الله تعالى: إذا مَرَّ بهم الطير يشتهونه، قالوا: سبحانك اللهم. وذلك دَعْواهم فيها، فيأتيهم الْمَلَك بما اشتهوا، فَيُسَلِّمُ عليهم، فيردون عليه، فذلك قوله ﴿ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞ ﴾ قال: فإذا أكلوا حَمِدُوا الله ربهم، فذلك قوله ﴿ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[٢] وكونهم يقولون إذا اشتهوا شيئاً ﴿ سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ ﴾ دليل على أنهم لا يصفون وينعتون ما يريدون، فبمجرد اشتهائهم الشيء يقولون ﴿ سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ ﴾ فيأتيهم على الوجه الذي اشتهوه، وبالدقة التي كانت تخطر ببالهم، ولذلك قال تعالى عنهم في سورة الزخرف ﴿ يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٧١ ﴾ فيأتيهم الذي اشتهته النفس كما هو تماماً، ليدل على عظمة النعيم الذي هم فيه، وكذلك دقة الوصول لنوع ما اشتهته وأرادته النفس، فيأتيها كما أحبت أن يكون عليه.

ومعنى ﴿ سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ ﴾ أي: تنزيهاً لك يا رب من كل نقص وعيب وسوء. ومعنى ﴿ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞ ﴾ يَذْكُرون نعمة الله تعالى على من يسلمون عليه، أن سَلِمْتَ وأَمِنْتَ مما ابتلي به أهل النار. ومعنى ﴿ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ أي: يُتَمِمُون لحظات النعمة وساعاتها بشكر الله تعالى رب العالمين على ما أنعم به عليهم من النعيم المقيم. مما يبين فضل التسبيح، وتنزيه الله تعالى عن كل عيب، وفضل كلمة السلام، وفضل الحمد والشكر لله تعالى، خاصة بعد كل نعمة، فإنها من كلام أهل الجنة.

ثم يخبر الله جَلَّ ثناؤه بسنته في التعامل مع عباده، الدالة على حلمه ورحمته ولطفه بهم ﴿ وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ لَقُضِيَ إِلَيۡهِمۡ أَجَلُهُمۡۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴾ فلو تعامل الله تعالى مع الناس في إجابته إلى ما يستحقون من لمكروه بمثل ما يريدونه من ربهم سبحانه وتعالى في سرعة إجابته للخير لأهلكهم. ولكنه يحلم عليهم.

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٠/٤)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٢٦/١٢)

ومن بلاغة هذا النص الكريم، وسعة دلالاته العظيمة، أنه استوعب الأوجه الكثيرة من المعاني والمقاصد: فأولها: أنها تبين لطف الله تعالى وحلمه بعباده. والثاني: متعلق بالدعاء، فلو أن الله تعالى يستجيب لعباده الشر إذا دعوا به على أنفسهم أو على أموالهم أو أولادهم عند غضبهم، كما يعجل لهم الخير، لأهلكهم بما دعوا به ﴿ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ﴾ والثالث: لو يُعجل الله تعالى للكافرين العذاب على كفرهم، كما يُعجل لهم خير الدنيا ﴿ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ﴾ أي: لأهلكهم الله تعالى بسبب كفرهم. والرابع: لو يعجل الله للناس عذابهم، كما يستعجلون تحصيل الخير ﴿ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ﴾ ولكنه حليم سبحانه وتعالى على عباده، فلا يستعجل لهم العقوبة كما يستعجلون الخير وتحصيله، والخامس: أن دلالة الآية الكريمة قد حملت وحوت بلاغة بيانية، باستيعابها حالات ودلالات متنوعة ومتعددة بسياق ونص واحد، فأعطى فيضاً من المعاني التي لا تضاد ولا تعارض بينها، بل جميعها متوافق مع حكمة الله تعالى.

ومن دلالات الآية الكريمة أن حلمه عَزَّ وجل عام لكل الناس، مؤمنهم وكافرهم ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ﴾ فقد ورد البيان بدلالة ﴿ لِلنَّاسِ ﴾ لتستوفي جميع جنس الإنسان من غير استثناء. مما يعضد فهم تلك الدلالات، وفيه ما يبين أن الله تعالى أقام هذه الدنيا على اللطف والرحمة بالناس، فأنزل لهم الكتب، وأرسل لهم الرسل، وحد لهم الحدود، وغير ذلك من تشريع الله تعالى، الذي تتحقق به الرحمة للعباد، ولذلك فإن رحمته تبارك وتعالى قد وسعت كل شيء، مما يؤكد ويبين للمسلم أهمية الرحمة بالخلق، كما قال صلى الله عليه وسلم (الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا أهل الأرض، يرحمكم من في السماء)[1]

فلما أن الله تعالى برحمته لا يُعَجِّل للناس الشر استعجالهم للخير، فإنه يترك الكافرين مدتهم في الدنيا، طاغين في كفرهم ﴿ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ فندع ونترك الذين لا يخافون عذابنا، ولا يُوقنون بالبعث والنشور في تمردهم ﴿ يَعْمَهُونَ ﴾ أي: يترددون ويتحيرون في طغيانهم، الذي هو مجاوزة الحد في النأي بكفرهم عن الإيمان، ليستوفوا عقابهم في الآخرة، وكذلك لتكون معهم المدة الكافية لمن أراد أن يستغفر ويتوب ويؤب إلى الله تعالى.

ثم ينتقل السياق الكريم إلى بيان حالة الإنسان النفسية وأثرها على سلوكه وأخلاقه عندما تنتابه حالة الضر، وأيضاً حال ما يرفع عنه جلَّ ثناؤه الضر ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ

(١) أبو داود، سنن أبي داود (٢٣١/٥) برقم (٤٩٤١)

قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ فإذا أصاب الإنسان ما يضره، أو ما يحصل له به الضرر من الجهد والشدة، دعا الله تعالى في جميع أحواله وحركاته، مضطجعاً وقائماً وقاعداً، وذلك من شدة ما أصابه، وعدم تحمله له. ومن دقة البيان أن الله تعالى ذكر ﴿ ٱلضُّرُّ ﴾ عاماً، ليناسب استيعاب جميع أحوال ومفردات الضر، في تعدد أنواعه وأشكاله، وكذلك مواطنه من الإنسان، فاستوعبت واستوفت كلمة ﴿ ٱلضُّرُّ ﴾ جميع أشكاله، واختلاف حالاته، ومواقع أثره من الإنسان، سواء في جسده أو ماله أو أهله أو في غير ذلك.

ومن دقة البيان الكريم أن عَدَّدَ سبحانه وتعالى أحوال الدعاء ﴿ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا ﴾ ليشمل الاضطجاع، والوقوف، والجلوس، وهذه جميع حالات الإنسان الأساسية في حياته، ويدخل تحت كل واحد منها ما تفرع عنها، واعتمد عليها، مثل أنواع حالات ﴿ لِجَنۢبِهِۦٓ ﴾ على يمينه أو شماله، أو على ظهره، وما يرتبط بمفردات حالات القعود، وحالات القيام. وأما التزامه الدعاء على اختلاف أحواله فهو دليل قوة ما أصابه من الضر، فلا يفتر عن الدعاء على فراشه، أو قائماً، أو جالساً. وهذه الدقة في النص الكريم دليل على بلاغة البيان، وإعجاز تراكيب ألفاظه، لتؤدي المقصود والمراد كاملاً ومستوفياً لدلالته، وتصويره بأكمل حالاته التي يكون عليها.

ثم يذكر سبحانه وتعالى الوجه الآخر لحالة الإنسان عند الرخاء ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ﴾ فلما كشف وأزال الله تعالى عنه ما أصابه من الضر، تناساه، ونسي ما كان عليه من الحال وقت الضر، وكأنه لا عهد له بتوسل ولا تضرع لله تعالى بأن يكشف عنه ذلك الضر من الجهد والشدة. مما يبين أن هذا الإنسان لم يستفد مما أصابه، ولم يرجع لربه بالشكر ولزوم الطاعة والثناء عليه بما هو أهله، ولا بالدعاء والتضرع حال العافية والصحة والخير والرزق، فيسير بأمره وشأنه المسار الذي يُرضي به ربه تبارك وتعالى، ولكنه دخل في دائرة الغفلة، وكأنه لم يمر بما كان يُذَكِّرُهُ بالله تعالى. مما يبين أن حال الإنسان من التغافل والتناسي ملتصق به، مما يستوجب على المؤمن أن يتنبه لهذه الحالة، وهذه الطبيعة البشرية، فإن هذه الآية الكريمة تعلم وتكشف للإنسان حقيقة حاله، ونفسيته وسلوكه، لكي يتنبه لها، ويصحح مساره، ويكون ارتباطه بالله تعالى حال السراء كمثل ارتباطه بربه حال الضراء.

ومن سعة البيان ودقته أن بين وأوضح هذا النص الكريم أن هذه الحال هي صفة الإنسان عموماً، سواء كان كافراً أو مسلماً، لأن الله تعالى ذكرها في جنس الإنسان ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ ﴾ فلم تكن

هذه الحال خاصة بالكافر دون المسلم، ولا المسلم دون الكافر، فالكافر كما قال تعالى عنه في سورة العنكبوت ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ وأما المسلم فيحدث منه أو من بعضهم أنه كثير الدعاء والتضرع إلى الله تعالى إذا مسه الضر، وأما إذا كشف الله تعالى عنه ما أصابه من الضر، تلهى قلبُه عن الشكر والحمد والتضرع وجميل الطاعة، وكأنه لم يمسه ضر من قبل، بينما كان في حالة الضر شديدة الدعاء والتقرب إلى الله تعالى.

ونسب الله تعالى إصابة الإنسان بالضر للضر نفسه ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ ﴾ بينما نسب كشف الضر له سبحانه وتعالى ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ ﴾ فلا يكشف الضر إلا الله تعالى، ولا يعطي الخير إلا الله تعالى. وكلمة ﴿ مَرَّ ﴾ تدل على حاله بعد الضر، وانتقاله إلى عافية الله تعالى، وكذلك تدل على مسلكه في التغيير والانتقال من حالة التضرع إلى حالة النسيان والفرح بالخير الذي تناسى به حاله، وما كان منه قبل زوال ذلك الضرر الذي مسه، فمضى على طريقته الأولى قبل مس الضر، ونسي حال الجهد وحال تضرعه وابتهاله، وكأنه لا عهد له به. فهي كلمة معبرة بأدق التعبير عن صورة حالة هذا الإنسان. وأما ﴿ كَأَن ﴾ فإنها تُعطي صورة مخالفة الإنسان لما يجب أن يكون عليه، كأنه لم يصبه ضر، فكان الأولى أن يتذكر ألم ما أصابه، ونعمة ما حل به من العافية بعد الضراء، وأن يتذكر الذي أزال عنه ضره، ليستمر في شكره على جميل عطائه، بكثرة الطاعة لله عَزَّ وجل.

ثم يقول تبارك وتعالى ﴿ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ فمثل ذلك التزيين، زُيِّن لمن لم يتعظ مما أصابه من سوء عمله، جزاء وفاقا، فكان جزاؤه من جنس سوء عمله. فكما زُين للإنسان الدعاء عند البلاء، كذلك زُين للمسرفين الذين تجاوزا حُدود الله تعالى أعمالهم السيئة، فَزُيّن لهم الإعراض عن الدعاء بعد زوال ما أصابهم، والانغماس في الشهوات والمعاصي. فهذا التزيين هو نتيجة لسلوك الإنسان وتصرفاته، فكما أنه تناسى حال ضره بعد زواله، يوم كان يتضرع ويدعو، وكيف أن أنعم الله تعالى عليه بكشف ذلك الضر عنه، وأصبح يمر وكأنه لم يصبه ضر، متمادياً على حاله التي كان عليها من المعصية، حتى أسرف وتجاوز الحد في المعصية، فجزاءً له قد تزينت له شهواته ومعصيته بسبب ما كان منه، من الغي والطغيان في المعاصي. فكان حاله بسبب سلوكه وعمله، فلم يظلمه ربه تبارك وتعالى بشيء، بل أنعم عليه بإزالة ما كان به من ضر، فانعكس عليه ظلمه لنفسه بطغيانه.

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ

تَعۡمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ
غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ
أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٥﴾ قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ
أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ
ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿١٧﴾
وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ
ٱللَّهِۚ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا
يُشۡرِكُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

ينتقل السياق الكريم إلى بيان ما حل بالأمم الماضية قبل بعثة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وما كان من تكذيبهم بالمرسلين من الأنبياء، وقد جاؤوهم بالبينات الواضحات من الحجج والآيات الباهرات، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾ يخبر الله تعالى في هذا السياق الكريم بالذي حل بمن كان قبل بعثت نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ممن كذب الرُّسُل، ليكون تحذيراً وترهيباً لأهل مكة وغيرهم من أن يسلكوا مسلك من كان قبلهم، فيكفروا بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم، فإن لهم فيمن سبق من الأمم عظة وعبرة وموعظة ﴿ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ ﴾ لقد أبدنا بالعذاب الشديد تلك الأمم السابقة التي كذبت المرسلين عليهم الصلاة والسلام بظلمهم وفجورهم.

ومن جميل البيان أن الله تعالى ذكر تلك الأمم بلفظ ﴿ٱلۡقُرُونَ﴾ لتفيد الكثرة والتعدد. والقرون هو جمع قرن، وهو الزمن الطويل، والمقصود به أهل كل زمن من الأزمان الماضية، فجمعت الكلمة دلالات متعددة في لفظة واحدة، فهي: الأمم الماضية، والجيل من الأمة، ومدتهم. كما أنها وردت بلفظ الجمع ﴿ٱلۡقُرُونَ﴾ الذي يفيد كثرة تلك الأمم، فإنها ليست أمة واحدة، بل أمم كثيرة متعاقبة. وهذا من غزارة البيان ورحابة دلالته، وإعجازه البلاغي والبياني.

وبدأ النص الكريم بلفظ ﴿ وَلَقَدۡ ﴾ والذي يفيد تأكيد وتحقق الهلاك لتلك الأمم ﴿ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ ﴾ فإنه قد تحقق هلاكهم، بما يمنع الريبة والشك عن إهلاكهم، فقد جاءهم العذاب ﴿لَمَّا ظَلَمُواْ ﴾ فبعد أن تحقق منهم الظلم، بتكذيب أنبياء الله تعالى، والتطاول على المرسلين عليهم الصلاة والسلام، والتمادي في معصية الله تعالى، فتحقق فيهم الهلاك كما تحقق فيهم الظلم، وقد شمل وصف الظلم ﴿ظَلَمُواْ ﴾ الشرك، وتكذيب الرسل، والتطاول في المعاصي، وذلك لاستيعاب دلالتها تلك المعاني. فقد ظلموا بالتكذيب والشرك والمعاصي، وقد جاءتهم رسلهم بالبينات، والمعجزات الدالة على نبوتهم وصدقهم، وعلى بيان عظيم ما هم عليه تلك الأمم من الشرك.

ثم أكد عَزَّ وجل استحقاقهم الهلاك بنفي الطمع في أن يؤمنوا ﴿وَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ ﴾ فتأكد أنهم لن يستجيبوا للرسل بالإيمان بهم، فلم يكن إهلاكهم لمجرد تكذيبهم من غير بذل الجهد من الأنبياء معهم، حتى تبين أنهم لن يؤمنوا البتة، لأن جملة ﴿وَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ ﴾ مُوضِّحَة للتحقق من استعصائهم وامتناعهم، ورفضهم الطاعة والاستجابة لله تعالى، فإن حصول الإيمان قد أصبح ميؤوس منهم. ثم يحذر الله تبارك وتعالى من أن مصير كل من يكذب الرسل هو الهلاك ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾ فبمثل ذلك الهلاك نُهلك القوم المجرمين، الذين عَظُم جرمهم بتكذيب المرسلين. فإن الهلاك هو الجزاء المستحق للمجرمين الذين يكذبون الرسول محمد صلى الله عليه وسلم. وقد سماهم عَزَّ وجل بأردأ الأسماء وصفاً ﴿ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾ والتي تبين استحقاق هذه الصفة الخبيثة لكل من اتصف بتكذيب المرسلين ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾ وذلك لفداحة فعلهم الذي تناهت فيه المعصية بالتطاول على أنبياء الله تعالى، فاستحقوا العقاب. وفي هذا تذكير للكافرين في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ومن بعدهم بما حَلَّ بمن كذَّب الرسل من العذاب الهالك لهم. ليكون تحذيراً وإنذاراً وتهديداً وموعظة، فإن في ذلك موعظة من رب العالمين لعباده بما حصل للأمم قبلهم، وتهديداً لهم بنفس العقوبة، وفي هذا تحذير بأسلوب الاعتبار بالغير، ليكون عبرة ووسيلة تبصير وبيان.

ثم يخبر الله تعالى بما امتن وتفضل به على من بُعِثَ فيهم محمد صلى الله عليه وسلم بعد تلك القرون الهالكة ﴿ ثُمَّ جَعَلۡنَٰكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لِنَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴾ فقد استخلفناكم في الدنيا بعد تلك القرون، والهدف والحكمة من ذلك هو ﴿لِنَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴾ ليتبين منكم ماذا تصنعون بنعمة الرسالة التي جاءتكم على يد رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم.

ومن دقائق البيان في قوله تعالى ﴿ ثُمَّ جَعَلۡنَٰكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ إفادة التعاقب. وعدم البقاء. فإنكم تذهبون كما ذهب من كان قبلكم، ويأتي بعدكم غيركم، فاعتبروا بسنة هذا التعاقب. وكذلك أي: يخلف بعضكم بعضا، لأن الخلائف جمع خليفة، مما يبين ويفيد استمرارية هذا الدين وظهوره، وكذلك استمرار تعاقب أهله، وتمكينهم في الأرض، فلن يُطفَأ نور هذا الدين وأهله أبداً. وفي هذا تحفيز لهم، للتصديق والإيمان والطاعة، وقد أسلم من أسلم، وكفر من كفر، وأعز الله عَزَّ وجل هذا الدين وأهله منذ بعثته صلى الله عليه وسلم، وهم يخلفون بعضهم بعضا، ليكون ذلك آية إعجاز بتحقق به ما قاله سبحانه وتعالى. وهذا الاستخلاف جاء من بعد تلك الأمم التي أهلكها الله تعالى ﴿ ثُمَّ جَعَلۡنَٰكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ ﴾ ثم يبين تبارك وتعالى علة وهدف هذا الاستخلاف ﴿لِنَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴾ لنشاهد كيف تعملون، وعِلْمُ الله تعالى سابق بما سيكون عليه عباده قبل أن يعملوا، ولكن حتى تُوفَّى كل نفس بما كسبت.

ودلالة كلمة ﴿كَيۡفَ ﴾ في قوله تعالى ﴿لِنَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴾ استفهام عن الحال التي سيكونون عليها، هل هي على الوجه الذي يحبه الله تعالى ويرضاه، أو على الوجه الذي يُغضب الله تعالى، حتى تُؤخذ كل نفس بما كسبت. بما يفيد المسلم أن يجتهد في أن يُري ربه منه خيراً، ولذلك كان عمر بن الخطاب يقول عند هذه الآية الكريمة: صدق ربُّنا، ما جعلنا خلفاء إلا لينظر كيف أعمالنا، فأَرُوا الله من أعمالكم خيراً بالليل والنهار، والسر والعلانية[1] ويكشف هذا منهجية المؤمن في تفاعله مع كلام ربه سبحانه وتعالى، بأن يكون تجاوبه بالعمل والطاعة، وكذلك يكشف قول عمر ابن الخطاب رضي الله عنه التطبيق العملي لأصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام (فأَرُوا الله من أعمالكم خيراً بالليل والنهار، والسر والعلانية).

ثم يخبر جَلَّ جلاله بموقف المكذبين، الذين لا يرجون لقاء الله سبحانه وتعالى، كاشفاً ومجلياً عن منهج تعاملهم مع آياته سبحانه وتعالى، ومع رسوله صلى الله عليه وسلم ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴾ فالمكذبون الجاحدون للبعث بعد الموت، لم يكن لهم رجاء في لقاء الله تعالى، فتمادوا في طغيانهم حتى إذا سمعوا آيات الله تعالى تتلى عليهم، سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من باب الاستهزاء والتهكم أن يأتيهم بقرآن غير هذا ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٣٥/١٢)

﴿هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُ﴾ وهم الذين لا يوقنون بلقاء الله تعالى، ولا بالبعث بعد الموت، وبالتالي فإنهم لا يخافون عقاب الله عَزَّ وجل، فتمادى هؤلاء المكذبون إلى التطاول الذي قادهم إلى أن يقولوا للنبي صلى الله عليه وسلم ﴿ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُ﴾ فيشترطون على النبي صلى الله عليه وسلم أن يأتي بقرآن غير الذي جاءهم به، أو أن يغير ما لا يردون منه. وقد ذكر الإمام الشوكاني رحمه الله تعالى: أنهم طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سمعوا ما غاظهم فيما تلاه عليهم من القرآن، من ذم عبادة الأوثان، والوعيد الشديد لمن عبدها، طلبوا أحد أمرين: الأول: ﴿ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ﴾ مع بقاء هذا القرآن على حاله ﴿أَوۡ بَدِّلۡهُ﴾ أو تبديل هذا القرآن بنسخ بعض آياته أو كلها، ووضع أخرى مكانها، مما يطابق إرادتهم، ويلائم غرضهم(١) وهذا الاشتراط دليل على قوة التطاول والتمادي، الذي يكشف عن أنهم متعاظمون في أنفسهم، وأنهم مستهزئون بما جاءهم من الحق الذي تعاظم الإعجاز في بيانه ونظمه ودلالاته وحجيته، فليس هناك أقوى حجة بيانية منه، كما قال تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ فوصف آيات القرآن الكريم بالبينات الواضحات الجليات. فعجيب أمرهم أن يطلبوا تغيير حجج الله تعالى البينات الباهرات، الظاهر حجتها من كل وجه. مما يدل على تعاظمهم في أنفسهم، واستكبارهم.

ومن فوائد دلالات قوله تعالى ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ إشارة إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم يذهب إليهم، ويُسمعهم كلام الله تعالى، ويجتهد في نصحهم، لِيُعْطِي الداعية النموذج الفاعل في إسماع الناس كلام الله تعالى، وأن يصبر كما صبر رسول الله صلى الله عليه وسلم على من يدعوهم.

وأمام سؤالهم للنبي صلى الله عليه وسلم بأن يغير القرآن أو يبدله، يقول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم بما يرد به عليهم ﴿قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓ﴾ قل لهم يا أيها النبي لا أملك حق تبديله من تلقاء نفسي، فإن أمر تبديله ليس من حقي، ولا يحل لي أن أبدله من تلقاء نفسي، فلست أنا الذي كتبته فأبدله، فإن الأمر لله تعالى الذي أنزله على عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم، وفي هذا رد على لمزهم: بأنك أنت الذي كتبته، فَغَيّره أو بدله، فكان الجواب غاية في بلاغة النفي والإثبات، فقد نفى حق امتلاك التبديل، وأثبت أنه من عند الله تعالى، بما يفيد: إذا كنت لا أملك حق التبديل، فإنه من باب أولى أن لا أملك حق التغيير، حتى آتيكم بقرآن غير هذا القرآن الكريم، فَيُثبتُ بهذا النفي أنه من عند الله

(١) الشوكاني، فتح القدير (٢/٤٣٠)

تعالى. ومؤكداً ذلك الإثبات بما بعده ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ فإنما اتبع فيما آمركم به وأنهاكم عنه ما يُوحَى إليَّ من اللهُ تعالى.

ومن دقة البيان في إقامة الحجة أسلوب الحصر ﴿إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ فقد حصر الله تعالى ما يقوم به نبيه صلى الله عليه وسلم فيما يُؤمر به، ويُبَلِّغ به غيره أنه فيما يُوحَى إليه من ربه تبارك وتعالى فقط ﴿إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ فلا يزيد عن ذلك بشيء من تلقاء نفسه صلى الله عليه وسلم، فحصر إبلاغه عليه الصلاة والسلام فيما يُوحى إليه ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ فهي جملة غاية في التأكيد البياني، وإقامة المزيد من الحجة عليهم، بل وغاية في بلاغة البيان، وجمال تراكيب السياق.

ثم يتلو ذلك المزيد من التأكيد ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ فإني أخاف وأخشى من الله تبارك وتعالى إن خالفت أمره عَزَّ وجل فيما يوحيه إليَّ، أن يصيبني عذاب عظيم في هوله وشدته. وفي هذا تأكيد آخر على استحالة أن يصنع شيئاً عليه الصلاة والسلام خلاف ما نزل من وحي الله تعالى عليه. كما أن في هذا تزكية من الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم، بأنه عليه الصلاة والسلام أمين على ما نزل عليه من وحي الله تعالى، وكذلك فيه الوعيد بالعذاب العظيم لمن افترى على الله الكذب، مما يوجب الحذر من القول على الله تعالى بغير علم. وفي هذا ما يبين حلم الله تعالى بأولئك المكذبين المستهزئين، مع علمه عَزَّ وجل ببواطنهم، بأن قولهم ذلك ليس من جهل بهم، بل من تكبر نفوسهم وتعاليها. وكذلك حلم وصبر النبي صلى الله عليه وسلم عليهم، والتعامل معهم على الظاهر منهم، إذ لم يتجاهلهم ويصد عنهم، بل تعامل معهم بما تقتضي الحكمة التي حاججهم الله تعالى بها، على ما كان منهم، فلم يحصل منه أن عاملهم معاملة السوء لهم، لقاء ذلك التعنت والتطاول في الطلب.

بل من مزيد كرم الله تعالى في التعامل معهم أن يزيد في إخبارهم بالمزيد من البيان في إقامة الحجة ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ فقل لهم يا أيها النبي: لو أراد الله تعالى أن لا تسمعوه مني، لما سمعتم تلاوته مني، فإن مشيئة تلاوته وإسماعكم إياه هي لله تعالى، فقد نفى الله تعالى عن نبيه صلى الله عليه وسلم أن تكون له مشيئة وإرادة في نظم وتلاوة هذا القرآن الكريم، فلو أن الله تعالى لم يشأ ذلك ولم يريده لما كان ذلك، ولما سمعتموه، بما يفيد: نفي الاستطاعة أن يأتيكم بذلك، بما يؤكد أن نزوله حدث عظيم بقوة إعجازه، وعظيم بيانه. فلسان حاله صلى الله عليه وسلم: أنه عزيز عليَّ أن أقول كلاماً مثل كلام الرحمن عَزَّ وجل، المعجز في نظمه وتشريعه وقوة بيانه وجزالته. فإذا انتفت تلاوته بغير مشيئة الله تعالى، فإنه من باب أولى ألا أستطيع أن آتيكم بمثل هذه الحجة البيانية البالغة.

ثم يزداد البيان التأكيدي بقوله تعالى ﴿ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦ ﴾ ولَمَا علمتم منه وعنه شيئاً. فلو أراد وشاء الله تعالى ما أعلمكم بالقرآن، فلم تعلموه أصلاً، ثم يبين الله تعالى لهم حجة أخرى عظيمة ﴿ فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ فقل لهم يا أيها النبي صلى الله عليه وسلم: فقد مكثت بينكم عمراً وزمناً ليس بالقصير، فتعرفوني، وتعرفون قدراتي، بأني لا أكتب ولا أقرأ، وتعرفون أمانتي وصدقي، فإن أمري وحالي ليس بخاف عليكم، فقد أرجعهم الله تعالى إلى سيرته صلى الله عليه وسلم التي يعرفون من خلالها أنه رجل صادق أمين، ولو كان مراده الاستعلاء عليهم، لكان ذلك فيما مضى من عمره، وليس بعد أن بلغ أربعين سنة، ثم يعيدهم إلى التفكر والتعقل ﴿ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ فكيف تنكرون الحق؟ ألا تملكون العقول التي يعقل بها الإنسان الحق؟ فإن العاقل يُعْمِلُ عقله في ذلك، ويتفكر ويتأمل، فإن كنتم لا تعقلون، وهذا مستبعد منكم، فكيف تنكرون هذه الآيات البينات على رجل تعرفون حقيقته، وفي هذا لوم لهم على الترفع عن الحقيقة التي يدركها العاقل من هذه الآيات البينات، وكذلك من جهة معرفتكم لسيرة النبي صلى الله عليه وسلم الذي تلاها عليكم، فكلاهما يثبتان حقيقة النبوة، وصدق الرسالة، ووجوب الاتباع. فإن مضمون الرسالة آية وحجة، وسيرة الْمُرْسَل بها حجة ثانية عليكم.

وفي هذا ما يبين ويفيد أن منهج الله تعالى هو منهج الحجة والدليل، وأنه يعامل العباد على ما يظهر منهم، بالرغم من علمه جَلَّ جلاله بحقيقة سرائرهم، إلا أنه تعامل معهم على ظاهرهم، فقد تعامل مع هؤلاء الجاحدين على أن جحودهم يحتاج إلى المزيد من الإقناع، وإلا فإن مَطْلَع كلامهم يكشف استهتارهم واستهزاءهم وسخريتهم، فلا يظن به أحد إلا الاستهزاء والسخرية، نتيجة الاستكبار، عند قولهم ﴿ ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ ﴾ مما يفيد أن على الداعية والناصح أن يحمل كلام الناس على ظاهره، وأن يتعامل معهم على ذلك الأساس، وأن يصبر عليهم كما صبر عليه الصلاة والسلام على قومه، وعلى غيرهم ممن واجههم ودعاهم. وكذلك أن يكون مسلكه وفق منهج الله تعالى في توجيه نبيه صلى الله عليه وسلم، وأن يتعلم من حلمه سبحانه وتعالى على عباده عَزَّ وجل.

وبعد أن قامت الحجة عليهم من كل وجه، وتعامل معهم على ما ظهر منهم، يذكر الله تعالى الوعيد الشديد لمن تمادى في طغيانه بعد بيان الحجة البالغة الظاهرة الواضحة ﴿ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴾ فليس هناك أشد ظلماً ممن افترى الكذب على الله تعالى، أو كذب وصد عن الآيات والحجج الواضحة، فلن يفلح هؤلاء المجرمون. وقد جاء الوعظ الكريم من الله سبحانه تعالى بسؤال استنكاري ﴿ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا

أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ﴾ فيستثير العقول إلى التفكر في الحقائق، وفي عواقب تكذيب الحقائق. فهل هناك أشد اعتداء في الظلم ممن اخترع على الله تعالى الكذب، أو كذب بحجج الله تعالى، وصد عنها؟ والجواب ليس هناك أعظم ظلماً من هذا الصنف من الناس. وبالتالي يكون هذا السؤال الاستنكاري تقرير للحقيقة كذلك، فيقرر به سبحانه وتعالى ظلم المفترين على الله الكذب، وكذلك المكذبين بآياته سبحانه وتعالى، فهو استنكار لمن كانت هذه حاله.

ثم بعد أن تقررت حقيقتهم، يأتي الحكم في حق هؤلاء ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ فإن هؤلاء قد ارتكبوا جرماً عظيماً، فاستحقوا الدخول في هذا الوصف القبيح، لتعاظم ما جاء منهم، فإن الفلاح بالخير مستبعد منهم وعنهم، وسواء كان فلاح الدنيا أو الآخرة، إذ لم ينفع معهم النصح، ولم ينتفعوا بالحجج والبراهين، فيعطي هذا الأسلوب القرآني الكريم أهمية الترهيب بعد الموعظة والنصح، وبيان الحجج والبراهين، وكذلك أهمية تقديم الترغيب والحجة على الترهيب والتهديد والتقريع. ومن غزارة البيان أن الله تعالى وصف عدم فلاحهم بصفة العموم ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ ليشمل عدم الظفر بخير الدنيا والآخرة، فالفلاح والفوز بالخير مستبعد عنهم تماماً.

ثم يبين الله تعالى ويخبر بحال المعبودات والعابدين لها من دونه عَزَّ وجل ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ينكر الله تعالى على من عبد أصناماً ومعبودات من دونه سبحانه وتعالى، فإنها لا تضرهم إن تركوا عبادتها، ولا تنفعهم إن عبدوها ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾ وفي هذا بيان لواقعها الذي يستلزم منهم أن لا ينصرفوا في عبادتهم إليها وهذا هو حالها، بل يجب أن يصرفوا عبادتهم للذي بيده ملكوت كل شيء سبحانه وتعالى، وفي هذا التوجيه والبيان الكريم لحال المعبودات ما يعيد العابدين لها إلى حقيقتهم وحقيقتها، وبالتالي كيف تعبدون أصناماً مسلوبة النفع والضر. ثم يكشف عَزَّ وجل تمادي هؤلاء المشركين، بأن جعلوا تلك الأصنام واسطة بينهم وبين الله تعالى، ليدخلوا بهذا الفعل والاعتقاد ميدان الشرك ودائرته ﴿وَيَقُولُونَ هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ فيزعمون كذباً أن هذه المعبودات من الأصنام تشفع لهم عند الله تعالى.

ومن بديع ترتيب منطق الحجة والبرهان، أنه بعد بيان علل عبادتهم لأصنامهم يأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم ﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فيواجههم تبارك وتعالى بسؤال استنكاري، يقرر به بهتانهم وكذبهم، من خلال إثبات عدم واقعية جمعهم بين الاعتراف بالله تعالى وبين جعلهم الأصنام شريكاً له في ألوهيته وربوبيته، وبين عدم علم الله تعالى بما في السماوات والأرض ﴿أَتُنَبِّئُونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فإنها لا تجتمع عقلاً ولا حقيقة، قال الضحاك رحمه الله تعالى: أتخبرون الله أن له شريكاً، ولا يعلم لنفسه شريكاً في السماوات ولا في الأرض[١] فهو سؤال استنكار وتعجب من حالهم، أتخبرون الله الذي خلق السماوات والأرض بشيء تعلمونه أنتم أيها المخلوقين وهو لا يعلم به عَزَّ وجل، فتكون الإجابة حتماً هي: لا يمكن ذلك. فكيف إذاً تعبدون من دونه ما لم يأمر به من اختراعاتكم التي اخترعتموها، وكَذِبكم الذي تفترونه، وتجاوزكم الحق وحدود قصور علمكم ومعرفتكم. فهي محاجة عظيمة الحجة، وبالغة الأثر، وجليلة البيان، فلا يمكن لعاقل بعد هذا البيان أن يُقر بأن الأصنام تشفع لمن عبدها عند الله تعالى، ثم يؤكد ذلك عَزَّ وجل بتنزيه ذاته الكريمة النزيهة عن افترائهم وبهتانهم العظيم، فقال جَلَّ جلاله ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فتنزه الله تبارك وتعالى عن أن يكون له شريك في ملكه وألوهيته وربوبيته.

وفي هذا البيان ما يؤكد أن منهج الله تعالى قائم في توجيهه لعباده على البيان بالحجة والأدلة والحوار البليغ، الذي تبلغ به الأفهام تمام الحجة، ويرفع عنها الجهل، ويتصحح به الفكر، إلا من أبى، فأصبح امتناعه امتناع تكبر لا قصور في الحجة، مما يعطي الداعية المنهجية المتكاملة في الدعوة إلى الله تعالى، بل وفي عموم النصح والتوجيه والإرشاد، ليتأكد بذلك أن منهج هذا الدين ليس منهج قمع وإرغام، بل هو منهج الحجة والدليل والبرهان.

﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ
لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا
ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ
مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِى

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٥/٤)

يُسَيِّرُكُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

يستمر السياق الكريم في بيان الحجج، وبيان حال الإنسان تجاهها، بما يُعَمّق قوة الحجج بأعلى درجات البيان الجلية الواضحة، وينطلق البيان الكريم ابتداء من كشف الاختلاف البشري في الدين، فيقول تعالى ﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُواْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ يخبر الله تعالى أن الناس كانوا أمة واحدة على التوحيد، ثم حدث الشرك من الناس، فاختلفوا في أنواع معبوداتهم وشركهم وانحرافهم. وجاء هذا البيان من الله عَزَّ وجل بعد أن أوضح تبارك وتعالى مجادلة المشركين وبيان ما كانوا فيه من الجهل والعبادة الباطلة، بإشراكهم مع الله تعالى ما كانوا يعبدون من الأصنام، مُدَّعين أنها تقربهم عند الله زلفى بزعمهم الباطل، فأكد الحق سبحانه وتعالى بأسلوب الحصر أن الناس كانوا أمة واحدة على ما فطرهم الله تعالى عليه من التوحيد، ثم حدث الشرك من الناس، فاختلفوا في أنواع معبوداتهم وشركهم وانحرافهم ﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُواْ ﴾ ومن جميل وعمق البيان الإلهي أنه جاء بأسلوب القصر الذي تضمن النفي والإثبات، فنفى السياق أن تكون الأمة في بدأ خلقها وتكوينها مختلفة في فطرتها وعبادتها، بل كانت على الحنيفية السمحاء ﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ فدلّ إثبات وحدة الأمة في عقيدتها على نفي اختلافهم في دينهم، فحصر أصل حقيقة نشأتها في أنها أمة واحدة، لا اختلاف بينها في فطرتها، وتوحيدها لله تعالى، وتوجهها له وحده لا شريك له، وأثبتت كذلك أن الاختلاف طارئ عليها، وليس من أصلها ﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُواْ ﴾

ثم يبين ويوضح تبارك وتعالى حكمته وحلمه بعباده، وكريم قضائه ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ فمن شدة بغيهم وطغيانهم فيما طرأ عليهم من

الاختلاف، أنه لولا أن سبق من الله تعالى أنه لا يُهلك قوماً إلا بعد إقامة الحجة عليهم لأهلكهم ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ لقضى بينهم فيما اختلفوا فيه، بأن يهلك أهل الباطل منهم، وينجي أهل الحق من بينهم. مما يفيد أن الله تعالى لا يؤاخذ أحداً إلا بعد إقامة الحجة عليه، كما يفيد هذا السياق: تعظيم جُرم هؤلاء، وتهويل ما وقعوا فيه من الشرك، حتى أنه اقتضى الأمر إهلاكهم مباشرة لولا أنه سبق من الله تعالى حكما وقضاء. فإن الله تعالى عالم بما سيكون قبل أن يكون، ولكن ليبين ويدل بهذا السياق على هول وعظيم الشرك والكفر عموماً، وأن الجدير بأهل الشرك والكفر هو التعجيل لهم بالعذاب والإهلاك، وليس الإمهال لهم، فالاستحقاق الذي يليق بكفرهم هو استئصالهم بالهلاك والتدمير، ولكن لله تعالى كمال الحكمة فيما سبق من حُكْمِه وحكمته.

ويفيد هذا: أن الأصل في حال الناس أنهم جميعاً أمة واحدة، على ملة آدم عليه السلام، فتكاثروا، فكثر الخلاف والاختلاف، وحصل الانحراف بعبادتهم الأصنام، فبعث الله تعالى نوحاً عليه السلام، فكان أول رسولٍ بعثه الله تعالى للناس.

ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن أوضح الله تعالى حال الناس في كلمتين ﴿ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ ثم أوضح اختلاف حالهم من الوحدة إلى الاختلاف، فكان ذلك سبب في بعث الرسل. مما يدل على حاجة الناس إلى من يجدد لهم دينهم، بسبب ما يحصل منهم وبينهم من الاختلاف. وإذا كان هذا الاختلاف قد حصل في دين الله تعالى، فإنه من باب أولى أن يختلفوا فيما هو دونه من أمور الحياة والعلاقات الاجتماعية، وفي المهنة والمصالح، وغيرها مما يختلف الناس فيه، وهذا يعطي بياناً في أهمية التعامل مع هذه الحقائق، بما يدفع ويعيد المجموعة والجماعة إلى وحدتها، وأن الناس يحتاجون إلى ذلك بين الفينة والأخرى، وسواء على مستوى الأمة، أو مستوى المجتمع، أو الأسرة، وكذلك على مستوى المهنة، والمصالح العامة.

ثم يخبر الله تعالى بالمزيد من عناد وتعنت هؤلاء المشركين ﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾ فيقول المشركون: هلاَّ أُنزل على محمد ﴿ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ أي: علامة ودليلاً نعلم به أنه محق فيما يقول عن نبوته. وهذا من فرط عنادهم، وعلى سبيل التعنت مما يقترحون من التبديل والتغيير لآيات القرآن الكريم، وإلا قد نزلت آيات قاهرة، ومعجزات باهرة، وكفى بالقرآن الكريم معجزة على مدار تعاقب الأجيال. ثم يُعَلِّمُ اللهُ تعالى نبيه بما يقول ويرد عليهم به ﴿ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾ فقل لهؤلاء المشركين: أن سؤالكم الآية هو سؤال غيب، ولا يعلم الغيب إلا الله تعالى، بما يفيد أن ما تطلبونه هو عند الله تعالى،

ولا أملك ما تريدون، فسبحانه وتعالى هو المستأثر به وحده لا شريك له ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾ ولكن انتظروا قضاء الله تعالى بيننا، ليظهر المحق من الباطل، فيظهر صاحب الحق الْمُؤَيَّد من الله تعالى على صاحب الباطل. وفي هذا الرد الصارم القاطع نوعان مما ينبني عليه الانتظار، فانتظار الرسول صلى الله عليه وسلم، هو انتظار ترقب لما سيحصل بهم، وما سيحصل من نصر الله تعالى له عليه الصلاة والسلام، بإظهار دينه تبارك وتعالى، وأما المعاندين المتنطعين فينبني على انتظارهم ما سيحل بهم من عقوبة الله تعالى، وفي هذا الرد ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾ ما يوجب الخوف لهم، ولكن التمادي في العناد والكفر والاستعلاء ما يجعل المعاند يؤثر إسراره ويبقى عليه.

ومن الآيات التي كانوا يطلبونها، هو قوله تعالى عنهم ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُ﴾ وكذلك ما جاء في سورة القصص ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ لَوۡلَآ أُوتِيَ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓۚ أَوَلَمۡ يَكۡفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۖ قَالُواْ سِحۡرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلّٖ كَٰفِرُونَ ٤٨﴾ ومن المعجزات غير القرآن التي نزلت على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم: انشقاق القمر، حتى رأوا حراء بينهما، وكذلك من الآيات والمعجزات ما ذكره ابن الجوزي رحمه الله تعالى: أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا على أهل مكة بالجدب، فقحطوا سبع سنين، فأتاه أبو سفيان فقال: ادع لنا بالخصب، فإن أخصبنا صدقناك. فدعا لهم، فَسُقُوا، ولم يؤمنوا[1] ومن الآيات نبع الماء من بين أصابعه صلى الله عليه وسلم، وحنين الجذع، واهتزاز جبل أحد، وغيرها مما أظهره الله تعالى عليه من الآيات، وكفى بالقرآن معجزة خالدة.

ثم يخبر الله تعالى بحال الإنسان عندما تحل عليه رحمته تبارك وتعالى بعد أن كان في ضراء أصابته، فقال جَلَّ جلاله ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ﴾ فإذا رزقنا المشركين رزقاً وفرجاً ورخاء بعد الكرب والشدة ﴿إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَا﴾ أي: استهزاء وتكذيب. ومن جمال البيان ودقته، أن كلمة ﴿رَحۡمَةٗ﴾ تشمل وتستوعب جميع عطاء الخير من الله تعالى: كالإسلام، والعافية والسرور، والخصب، والرزق، وغير ذلك من العطاء الذي لا يُعَد ولا يُحَد. وجعل تحصيلها يُستذاق ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ﴾ لأن الذوق هو أدق معاني

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٦/٤)

الإدراك للشيء واستطعامه، كما أن ذائقة اللسان هي أدق جوارح الإنسان ذوقاً، فجاء البيان عن الإحساس بنعمة الرحمة بعد الضراء بكلمة الذوق، مما يدل على كثرة رحمته سبحانه وتعالى، وقوة تأثيرها، مع حاجة الإنسان إليها وفقره لها، وتشوفه وتشوقه لها، وهذا من دقة البيان في الوصف، مع كمال بلاغته بشموله لجميع مفردات دلالته. وأما كلمة ﴿ضَرَّآءَ﴾ فتستوعب كل ما يتضرر منه الإنسان، كالفقر والبلاء، والكفر، والجدب، والأمراض والأسقام، وغيرها مما لا يُعَدُّ نوعه، ولا تحصى مقاديره.

ومن بلاغة البيان كذلك: كشفه للحالة النفسية والسلوكية عند الإنسان عموماً، حالما يكشف الله تعالى عنه ضره، بعطاء من فيض رحماته، فينزاح عنه ذلك الضر الأليم ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةً مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَا﴾ فالمكر بآيات الله تعالى متعدد الأنواع والدرجات، فجاء البيان عاماً ليشمل تلك الأنواع، وتلك الدرجات من المكر، فهو يشمل: النفاق، والتكذيب والجحود، والرد القبيح، والتأويل الفاسد، كإيهام الناس أن ما جاء به صلى الله عليه وسلم لا تتحقق فيه المعجزة، وكإضافة النعمة لغير الله تعالى.

وهذا المكر هو سلوك المنافق، والكافر، والمشرك بالله تعالى، قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى عن المراد بالناس ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ﴾ إذا رزقنا المشركين بالله[1] وقال المفسرون: المراد بالناس ها هنا الكفار[2] وإن كان النص الكريم بحسب السياق هو في حق الكافرين، إلا أن لفظ الناس ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةً﴾ يشمل جنس الإنسان عموماً، وكل بقدر ما يحصل منه، وبنوع ما يحصل منه من المكر، وهذا من سعة دلالة النص الكريم ورحابته، ليكشف ويعالج به قضايا الإنسان عموماً، فقد يحصل من المسلم شيئاً من ذلك، بما يُدْخِلُه في دائرة المعصية، مما يجب الحذر من هذا المسلك الشنيع، فقد يصاب المؤمن بفقر مدقع، ثم يوسع الله تعالى عليه فيبطر بماله، وكأنه لم يكن في فقر مؤلم، وربما نسب الرزق لجهوده وقدراته. وقد يصاب بمرض، فيعافيه الله تعالى، فينسى رحمة الله تعالى به، وربما نسب الشفاء للدواء فقط، فيكون المكر بآيات الله تعالى هو عدم الاعتبار بما حصل له، أو أن ينسب النعمة للأسباب، تاركاً رب الأسباب. والحقيقة أن الرحمة التي أصابته هي آية من آيات الله تعالى، ونكرانها أو التعامل معها بغير مقتضاها هو مكر بآياته سبحانه وتعالى. مما يبين للمسلم أهمية اسدال النعمة لله تعالى، وليست للأسباب، فإن الأسباب هي من الله تعالى. وسواء

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٢/١٤٤)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٤/١٦)

كان ذلك من حيث الدلالة على الأسباب، أو من حيث تأثيرها، فإن الله تعالى هو الذي جعل لها الفعل والأثر، وجعلها سبب في تحصيل المبتغى.

ومن جمال وبلاغة السياق، أن انتقل البيان الكريم من الإخبار المباشر عنهم ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً﴾ إلى توجيه الخطاب في الإخبار إلى النبي صلى الله عليه وسلم ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ فيخبر الله تعالى عن قدرته بما يناسب حال مكر الإنسان بآيات الله تعالى ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ قل يا أيها النبي لهؤلاء الماكرين إن الله تعالى أسرع مكراً في جزائه وعقوبته بالمكر، مما يفيد التحذير والتقريع لمن يسلك هذه المسالك الشنيعة، فإن الله تعالى أشد استدراجاً وإمهالاً، حتى يظن ويعتقد المجرم أن الله تعالى لن يؤاخذه بما كسب، ثم يأخذه الله عَزَّ وجل أخذ عَزيز مُقتدر، على غرة منه. إضافة إلى أن الملائكة يكتبون ما يفعله العباد ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ فإن الحفظة ممن أرسلهم الله تعالى على بني آدم يكتبون، ويسجلون ما يصدر عنهم، لمجازاتهم على ما يفعلون، وخص ملائكته عَزَّ وجل بكتابتهم لما يمكرون، لبيان أنهم سيحاسبون على مكرهم هذا، وإلا فإن الملائكة يكتبون كل ما يصدر عن الإنسان من خير وشر، إلا أن يغفر الله تعالى لمن يشاء. مما يبين ويثبت أن هناك ملائكة يحفظون ما يصدر عن بني آدم من خير أو شر، ليقرأ كل إنسان كتابه يوم القيامة، وحينها لا يستطيع أن ينكر منه شيئاً، مما يوجب الوقاية والحذر من كل مسلك يُغضب الله وتعالى.

ثم يُذكّر ويخبر الله تعالى عن عظيم عطائه، وجزيل فضله، وعموم إحسانه على عباده أجمعين، وقوة قدرته وسرعتها إذا أراد أحداً من العباد بخير، وفي نفس الوقت يخوف عباده بالوعيد والترهيب لمن خالفه، مع بيان حال الإنسان وتقلبه، وما يحدث منه من المكر، فقال جَلَّ جلاله ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ فإن الله تعالى هو الذي يسيركم في البر على أقدامكم أو على الدواب وغيرها، وفي البحر على السفن، و يكلؤكم بحراسته وحفظه لكم أثناء إبحاركم البحر بين أمواجه، وفي البر بين الهوام والوحوش وغيرها، ولو شاء لانتقم منكم في البر أو البحر أثناء سيركم. بما يفيد أن الذي سيركم وحفظكم قادر على أن يعاملكم بضد ذلك، فيهلككم في البر أو البحر.

ومن دقة البيان وبلاغة الأسلوب وجزالته أنه ذكر البر ومقابله البحر، ولم يقابل تبارك وتعالى البحر بدلالة الأرض، لأن الذي يقابل البحر هو البر وليس الأرض، ولأن دلالة الأرض أعم من البر، فالأرض تشمل البر والبحر، وهذه من دقائق الإعجاز في اختيار الألفاظ. وكلمة ﴿يُسَيِّرُكُمْ﴾ تفيد أنكم وإن كنتم تسيرون، فإن الذي مكنكم من السير هو الله تعالى، فقد نسب فعل التمكن من السير له عَزَّ وجل ﴿يُسَيِّرُكُمْ﴾ كما أنها تستوعب السير على الأقدام أو على الدواب أو على غيرها من العربات، والبواخر، وبشتى الأنواع وما يستجد منها، فهو الذي ألهمكم ذلك، لتستوعب كل ما يستجد من المراكب ووسائل النقل، فإن الملهم لها هو الله سبحانه وتعالى.

ثم يبين عَزَّ وجل قدرته على إهلاكهم أثناء غمرتهم في الرخاء فرحاً وسروراً، وذلك عندما يغترون بحلمه جَلَّ جلاله، فيتنعمون به فرحاً وسروراً، ليجدوا فيه هلاكهم ودمارهم، حتى يتبين لهم قدر جهلهم بعقوبة الله تعالى ومكره عَزَّ وجل بمن يمكر بآياته ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ حتى إذا كنتم راكبين السفن، وجرت بالراكبين فيها في عُباب البحر، فإذا بالأمواج قد أحاطت بهم من كل جهة. فأيقنوا أن الهلاك لا محالة قد أحاط بهم من كل جانب.

ومن جمال الأسلوب وبديع تراكيبه، هو الانتقال بين المخاطبين في توجيه الخطاب، فالخطاب في صدر الآية الكريمة كان موجهاً لعموم الناس ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ وذلك باعتبار أنه نفع عام، ثم لما جاء التخصيص، ورد الخطاب بضمير الغائب، مع تخصيصهم بالحدث ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ لأن هذا خاص بالمشركين، ونقلهم من السراء إلى الضراء، وانتقالهم عند الضراء من الشرك إلى الإخلاص في الدعاء.

فيقول الله سبحانه وتعالى عن تدبيره لهم في البحر، وعن مسلك المشركين عند ركوبهم البحر ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ حتى إذا كنتم راكبين السفن، وجرت بالراكبين فيها عُباب البحر ﴿وَفَرِحُوا۟ بِهَا﴾ سروراً وغبطة أثناء هبوب هذه الريح الطيبة التي اطمأنت لها النفوس، فبلغ بهم ذلك قمة السرور، ففرحوا بهذه الريح الطيبة التي جاءت كما يتمنون، فحينها أرسل الله تعالى لهم في تلك اللحظة ما لم

يكن يتوقعون ويحتسبون ﴿جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ﴾ فتلقتهم ريح عاصف، أي: شديدة حركة هبوبها ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ﴾ فأحاطت بهم أمواج البحر من كل جهة ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ﴾ فأيقنوا أن الهلاك لا محالة قد أحاط بهم من كل جانب، وهنا حصل منهم اليأس من كل سبب من الأسباب المادية التي يمكن أن تنقذهم، فأيقنوا أنه ليس هناك أداة أو وسيلة يمكن أن ينجوا بها. وفي هذا الموقف تأكد لهم: أنه لا سبيل للنجاة إلا بالله تعالى وحده لا شريك له ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ فهنا حصل منهم الدعاء والتوجه لله تعالى وحده لا شريك له، وأخلصوا لله الدعاء، بأن أفردوه بعبادة الدعاء، والتفتوا وتولوا عَمَّا كانوا عليه من الشرك، مما يدل على أنهم يعرفون أن الصواب هو توحيد الله تعالى بالعبادة، ويبين هذا أن الشدة تُعيد العاصي إلى الحقيقة، والاعتراف بها. بل ومن شدة معرفتهم أن اشترطوا على أنفسهم إن نجاهم الله تعالى مما هم فيه من الكرب، ليكونوا من الشاكرين له تبارك وتعالى ﴿لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ وذلك بلزوم موجبات الشكر، بالامتثال والطاعة والامتنان لله عَزَّ وجل، وتحقيق التوحيد، ونبذ الشرك، وغير ذلك من لوازم ذلك.

ثم يبين الله تعالى لطفه بعباده ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ فلما أنجاهم الله تعالى من هذا الكرب، من الأمواج التي أحاطت بهم، نكثوا ما عاهدوا الله تعالى عليه ﴿إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ أي: يفسدون في كل مكان يأتون عليه من الأرض. فلم يلزموا ما تعهدوا به من الشكر لله تعالى، ولزوم طاعته، بل أوغلوا في الفساد، فانغمسوا فيما هو ضد الحق. ومن دقائق الوصف أن ربط الله تعالى بغيهم بالأرض ﴿يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ ليفيد امتداد أثر فسادهم على نواحي الأرض وما عليها، فقد تجاوز بغيهم ذواتهم، ليمتد إلى غيرهم. وكان هذا البغي من غير حق ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ فهو من غير سبب ولا شبهة، ولا نتيجة جهل، ولا مجال لأن يُلتمس لهم العذر في شيء من فسادهم، بل هو فساد مُتعمَّد حتى اتصف بصفة البغي الذي هو مجاوزة الحد في الباطل.

ثم يأتي خطاب الوعظ من الله تعالى، بأسلوب العموم لكل الناس ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ ليشملهم ويشمل غيرهم، وليفيد الزجر والتنبيه والتحذير والتعليم، وذلك ببيان عاقبة البغي ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ فيا أيها الناس،

احذروا البغي، الذي هو الأعمال الظالمة ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ﴾ فإن جناية ظلمك واقع على أنفسكم، فأعمالكم الظالمة عائدة عليكم بما تستحقون من الجزاء، وكلمة البغي ﴿بَغْيُكُمْ ﴾ وصف شامل لكل الأعمال الظالمة من الفساد والكفر.

وحتى تزداد الصورة والوصف بياناً يقول الله تعالى ﴿مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ فإن ما تنالونه بهذا البغي من الاستمتاع الدنيوي، إنما تتمتعون به في حياة قصيرة زائلة، وهي الدنيا، بما يفيد حصر هذا الاستمتاع على هذه الدنيا فقط، وهو استمتاع بحياة زائلة بالموت، وقصيرة المدة، كما هو معروف عند كل أحد من الناس، وأما عند المؤمنين فهناك اعتقاد جازم بزوال الفرد عن الدني بالموت، ثم زوال كلي بيوم القيامة، وأما في الآخرة فيكون الحساب والجزاء.

ثم يخبر الله تعالى بما يجب الإيمان به وهو ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ وهذا تذكير بالمصير، أنه إلى الله تعالى، فيخبركم ربكم في الآخرة بجميع ما حصل منكم، بما يعني ويفيد أنكم ستعاقبون عليه، ويوفيكم ما تستحقون من العذاب، وفي هذا موعظة وتحذير لكل أحد من الناس، سواء كان مسلما أو مشركاً أو منافقاً، وغيرهم على اختلاف أنواع كفرهم ومعاصيهم وبغيهم. فجاء النهي عن البغي بثلاثة أساليب: الأول: الإخبار بارتداد وانقلاب ثمرة جناية البغي على الباغي من الناس ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ﴾ والثاني: بأسلوب تصوير حقيقة الاستمتاع ﴿مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ أنه متاع مؤقت، فاحذر من المؤقت الذي يفوت به الاستمتاع الدائم، والأسلوب الثالث: الجزاء النهائي ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ففي الآخرة تُجْزَى كل نفس بما كسبت.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤) وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢٥) ﴾

ينتقل الإخبار من الله تعالى إلى بيان حقيقة الدنيا بأسلوب المثل التشبيهي الذي يقرب صورتها إلى حالة ماثلة أمام العباد ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا

يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَـٰمُ ﴾ فإن مثال حياة الإنسان في الدنيا مشابه لحياة الأرض عندما ينزل عليها مياه الأمطار، فتخرج زينت الأرض في اخضرار وشموخ أشجارها، وظهور نباتاتها وأزهارها وثمارها، ثم تأخذ ألوانها البراقة الجميلة ألواناً متعددة في بهجتها، حتى يكمل حسنها. التي تشابه فتنة الإنسان بمفاتن الدنيا، ثم فجأة ينتقل الإنسان منها بموته، كما تموت تلك البهجة من الأرض بزروعها وخيراتها، فلم تبق للأرض تلك الزينة، كما لم يبق الإنسان في متعته. مما يجب الاعتبار بفناء الدنيا.

فقد شبه الله تعالى الدنيا بالحالة والهيئة التي يعايشها الإنسان في دنياه، وهو التشبيه الذي يحاكي صورة المشبه به، وهو من إبداع أساليب القرآن الكريم، مع قوة تأثيره في النفوس، وسرعة تحريك الأذهان والعقول نحو الحقائق بأقصى المعاني والدلالات، فبدأ النص الكريم بأداة الحصر ﴿إِنَّمَا ﴾ لتفيد حصر مَثَل الحياة الدنيا بحال نبات الأرض، ثم جفافه وتحطمه بعد أن اخضر وتكاثف، فازدانت به الأرض، مع تأكيد سرعة الزوال والانقضاء في هذا المثل، ومن دقة البيان أنه لم يشبه الدنيا، وإنما شبه الحياة الدنيا ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ لأن الذي يحاكي حياة الإنسان هي الحياة الدنيا.

فَمَثَلُ حياة الإنسان في هذه الدنيا مشابه تماماً بالماء الممطر الذي يُنَزِّلُهُ اللهُ تعالى من السماء ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ ثم يحدث التفاعل بين الماء والأرض ﴿فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ ﴾ كتفاعل الإنسان وتجاذبه مع مكونات الأرض والحياة ﴿مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَـٰمُ ﴾ فيخرج من هذا التفاعل بين الماء والأرض ما يأكله الإنسان والأنعام، وينتفع ويتمتع به هذا الإنسان وهذه الأنعام، فيشترك الحيوان مع الإنسان في ذلك الانتفاع. وهنا تبتهج الأرض بذلك النتاج، وتتزين، وتظهر عليها الألوان والأشكال المغرية المبهجة، وهذا كابتهاج الإنسان بمكونات الدنيا، وما فيها من مغريات ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ ﴾ وبعد هذا التفاعل بين ماء المطر والأرض تخرج زينت الأرض في اخضرار أشجارها، وظهور نباتاتها وأزهارها وثمارها، ثم تأخذ ألوانها البراقة الجميلة ألواناً متعددة في بهجتها، حتى يكمل حسنها.

وكلمة الزخرف كما جاء في معانيها، أنها: الزينة المزوقة، ومنه قيل للذهب زخرف، ومنه زخرف القول، أي المزوق[1] فعندما بلغت الأرض زخرفها من الزينة والجمال، وسرور أهلها بها، وأيقنوا واعتقدوا أنهم قادرون

---

(1) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن (٢١٢)

على جني ثمارها، والانتفاع بمحاصيلها ﴿أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِ﴾ أي: في تلك اللحظة التي ابتهج الناس بما على الأرض، واعتقدوا أنهم قادرون على الانتفاع بما عليها، أتاها أمر الله تعالى وقضاؤه بإهلاكها وتدميرها واستئصالها فجأة، فأصبحت ﴿حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِ﴾ فأصبح زرعها كأنه قد حُصد تماماً باستئصاله ﴿كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِ﴾ كأن لم تكن بالأمس عالية المنزلة، غنية بزرعها، وبهيجة بألوانها وثمارها وزهورها ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فبمثل ذلك التفصيل والبيان نفصل ونبين ونوضح الحجج والعلامات التي تُوجب التفكر في حال هذه الحياة الدنيا، فيحصل الاتعاظ والانتباه.

فهذا المثال لجمال الحياة الدنيا وزينتها وسرعة زوالها وانقضائها، يشابه زوال هذا الإنسان الذي استثارته زينة الدنيا، فمات حين ظن أنه قادر عليها. فإن زوال نباتها عنها في سرعته وبهجته، كزوال الإنسان عن تحصيل متاعها، وابتهاجه وسروره بما جمع فيها. فإن لحياة الدنيا مطية لجمع زهرتها وزخرفها، من الممتلكات والمال والجاه، حتى إذا فرح وأُعْجِبَ الإنسان بما جمع، وبما قصد ونوى من جمعه لخيراتها ورونقها، فينتقل بفكره إلى مرحلة الاعتقاد والظن الجازم بأنه متمكن منها، فيفاجئه الله تعالى بما يمنعه من الاستمتاع بها، من خلال عوارض المنع، كالمرض، أو الإعاقة، أو بهلاك ما عنده، أو بالموت، فَيَسْلِبُهُ عن زخرفها، أو يسلب زخرفها عنه. وهذا المثل المضروب من الله تعالى يبين للإنسان ما يجب أن يكون عليه في الحياة الدنيا، بعد أن أبصر هذه الحقيقة، بهذا المثل العظيم، ليكون عمله وفق مقتضيات منهج الله تعالى، الذي أنار له الطريق المستقيم، وأوضح له بشرعه الحكيم منهج مساره في الحياة الدنيا، ليصل به إلى الآخرة في أمن وسلام. اللهم بصرنا واهدينا، ووفقنا للعمل بما يرضيك عنا.

وبعد هذا المثل الذي يستثير الإنسان نحو التفكر والبحث عن نجاته، يدعوه الله تعالى إلى دار السلام التي يستحثه إليها بمثل الحياة الدنيا الذي ضربه له سابقاً، فيقول الله تعالى ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ فإذا كان هناك من يدعوا إلى زخرف الحياة الدنيا وزينتها، فإن الله تعالى يدعوكم إلى الجنة ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ فإن الله تعالى يدعوا عباده إلى الجنة التي هي دار السلام، قال ابن كثير رحمه الله تعالى: وسماها دار السلام، أي: من الآفات، والنقائص والنكبات[١] فيا أيها الناس بعد أن بينا لكم حقيقة الدنيا، فلا تغتروا بزينتها، فتنكبوا على طلبها، فإن مصيرها إلى فناء وزوال،

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٤٢٩)

كما هو مصير ما عليها من النبات وغيره، فاطلبوا الآخرة الباقية، وذلك بطاعة الله تعالى وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم. فاعملوا في الحياة الدنيا للحياة الآخرة، التي هي دار السلام، وليس للحياة الدنيا الفانية. التي هي دار الزوال.

ثم قال تبارك وتعالى عن هدايته ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فإن الله تعالى يوفق ويسدد من يشاء لإصابة الطريق المستقيم، وهو الإسلام، الذي جعله الله تعالى سبباً لدخول الجنة. مما يفيد وجوب الاستجابة لله تعالى حتى يسدده ويهديه، وأن يلزم الدعاء، ويسأل الله عَزَّ وجل الهداية والتوفيق.

وهذا التخصيص بالهداية ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ جاء بعد الدعوة العامة للاهتداء بهديه سبحانه وتعالى ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ فهي دعوة عامة لكل أحد من الناس، ثم خص بالهداية من شاء من عباده، وهي هداية اصطفاء منه سبحانه وتعالى، كما يصطفي الأنبياء والمرسلين من بين عباده.

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا
خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ
أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ
جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ
﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ
مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ
ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ
وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا
ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾

ينتقل البيان الحكيم من الله العلي العظيم إلى المقارنة بين الذين أحسنوا، وبين الذين أساؤوا، باكتسابهم الكفر، ليدرك الإنسان عمق مساحة المفارقات في الجزاء بين المطيع والعاصي، لتكون موعظة مؤثرة، وحجة بالغة الأثر. قال الله عَزَّ وجل ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ فإن للذين قاموا بالإحسان في طاعة الله تعالى، من الإيمان وعمل

الصالحات، فإن جزاؤهم ﴿ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ أي: المثوبة العظيمة، التي هي الجنة، بل ويتفضل الله تعالى بما يزيد عن الحسنى ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ فكلمة ﴿ وَزِيَادَةٌ ﴾ تفيد الزيادة عن نعيم الجنة، وهي رؤية الله تعالى. فعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ قال: النظر إلى وجه ربهم(١) ومن جميل البيان أن لفظ ﴿ أَحْسَنُوا۟ ﴾ استوعب وشمل محاسن الأعمال من الأقوال والاعتقاد والأفعال، بما يحفز المؤمن على تحري ذلك في كل تصرفاته. ومن مزيد كرم الله تعالى ما أضافه إلى ذلك النعيم، بانتفاء جميع ما يجلب لهم الخوف ﴿ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ﴾ فلا تغشى وجوههم كآبة وهوان وخزي، ليدل ذلك على أن وجوههم تصبح نظرة ونشطة، ويعلوها الفرح والسرور. والقتر هو الغبار الذي يغير الوجه، فَيُضعفُه، والذلة هي الانكسار، والكآبة والحزن.

وفي وصف الوجوه بأنه يمتنع عليها تحصيل القتر والذلة؛ ما يفيد أنها في سرور دائم، لا يزول ولا يحول. فلا يصيبهم ما يصيب أهل النار من القتر والذلة والانكسار. كما يفيد النص الكريم أن سبب إرهاق الوجه الحقيقي هو القتر، وكذلك: الذلة الذي هو الهوان والانكسار، فالغبار يغير لون الوجه، ويضعفه، وهو الجانب المادي، وأما الذلة فهي تمثل الجانب المعنوي، الذي يظهر على الوجه بالكآبة والهوان. وهذا من دقيق الوصف البياني في القرآن الكريم.

فهؤلاء الذين أحسنوا، ونالهم نعيم الله تعالى بدخولهم الجنة، وما زاد عليها من النعيم برؤية وجه الله تعالى، وامتنع عنهم ما تحصل به الكآبة والهوان والخزي، فهؤلاء هم المصاحبون للجنة ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ فهؤلاء هم أهل الجنة، المصاحبون لها، فأصبحوا الساكنون لها، والماكثون فيها أبداً، فلا يخافون زوالها، ولا هم بمخرجين منها، فتتنغص عليهم لذتها، فهي لذة دائمة، مصاحبة للجنة.

ثم ينتقل النص الكريم إلى بيان حال وجزاء من قام بشيء من أنواع وأصناف الكفر ﴿ وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ فمقابل جزاء الذين أحسنوا الحسنى، فإن هناك الذين كسبوا السيئات من الشرك، أو النفاق، أو أي نوع من أنواع الكفر، قال الإمام الطبري رحمه الله

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٢/١٥٦)

تعالى: فالذين عملوا السيئات في الدنيا، فعصوا الله فيها، وكفروا به وبرسوله[١] فإن من عدل الله تعالى أنه لم يزد على هؤلاء في الجزاء، بل أعطاهم مقابل السيئة سيئة ﴿ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا ﴾ فإساءتهم كانت من كسبهم لأنفسهم، فهم الذين حَصَّلُوها وسعوا في اكتسابها، بما ينتفي معه ظلم الله تعالى لهم. ونتيجة ما هم فيه من الجزاء والعذاب فقد أرهقتهم ذلة معصيتهم ﴿وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ ﴾ فيغشاهم الهوان والمذلة والانكسار من الافتضاح وسوء العذاب ﴿ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ ﴾ فليس لهم مِن مانع يمنعهم من عقاب الله تعالى، فيحفظهم من ذلك العذاب، وفي علمهم بهذا ما يتحقق به اليأس في نفوسهم، ليزداد أثر الهوان والذلة عليهم، فيظهر على وجوههم المسكنة والكآبة، وفي هذا البيان من الله تعالى للحال التي يصير إليها الكافر، ما يفيد الزجر بالموعظة، من خلال بيان حالهم إن لم يتوبوا ويقلعوا عن كفرهم أو شركهم ﴿كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ ﴾ فكأنما أُلْبِسَت وجوههم ظلمة وسواداً، شبيه بقطع الليل المظلم ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ فهؤلاء مصاحبين للنار، حتى أصبحوا أهلها وسكانها الماكثون فيها أبداً، فلا تزول عنهم، ولا هم بمخرجين منها.

ثم يخبر الله تعالى باليوم الذي يجمع فيه الخلائق للحساب والجزاء ﴿ وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ مَكَانَكُمۡ أَنتُمۡ وَشُرَكَآؤُكُمۡۚ فَزَيَّلۡنَا بَيۡنَهُمۡۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ ﴾ فيوم الحساب يحشر الله تعالى جميع العباد ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ ﴾ فيقول الله تعالى للذين أشركوا معه في ربوبيته أو ألوهيته ﴿ مَكَانَكُمۡ أَنتُمۡ وَشُرَكَآؤُكُمۡ ﴾ قفوا في موضعكم، وامكثوا في مكانكم أيها المشركون ومن أشركتموهم في عبادتي، بما يفيد الحبس والتهويل لهم، بسبب ما كان منهم. لأن في حصول هذا الموقف أمام المؤمنين، ما يفيد سلامة الموحدين، وزيادة السرور بتوحيدهم الله تعالى، وإفراده بالعبادة، وأن مصيرهم ليس كمصير الكفار والمشركين، كما أن في هذا افتضاح للمشركين، وبيان أن غيرهم من المؤمنين ليسوا مثلهم، وفي جمعهم بشركائهم، ما يبين علة وسبب ما فيهم من الهوان والذلة.

ثم تأتي المرحلة الأخرى ﴿ فَزَيَّلۡنَا بَيۡنَهُمۡ ﴾ فقطعنا وفرَّقنا بين المشركين وشركائهم، أي بين العابد والمعبود، وانتهى التواصل الذي كان بينهم في الحياة الدنيا ﴿ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ ﴾ فبقدرة

---

(١) المرجع السابق (١٢/١٦٦)

الله تعالى تنطق تلك المعبودات من الأصنام وغيرها، حين يرون العذاب، وتتقطع بينهم سبل التواصل، فيتبرأ الذين اتُّبِعُوا من الذين اتَّبَعوا، فتكون المحاكمة بينهم، بأن يُقال للمشركين اتبعوا ما كنتم تعبدون من دون الله تعالى، وقد وقفت أمامهم آلهتهم، فيقول المشركون كنا نعبد هؤلاء، فتقول لهم تلك المعبودات: ﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ فيستنكرون وقوع هذا الأمر، لأنها لم تكن تعقل، ولا تسمع ولا ترى، فكأنها في ذهول من هذا الأمر. وذكر الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: فتقول الآلهة: والله ما كنا نسمع، ولا نبصر، ولا نعقل، ولا نعلم أنكم كنتم تعبدوننا، فتقول الآلهة ﴿فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾[1] فقد كنا في غفلة عن ما كان يحصل منكم، فكيف تعبدوننا ونحن لا نراكم ولا نسمعكم، ولا نحس بعبادتكم لنا. ليكون ذلك وبالاً وحسرة عليهم. إذ كيف تعبدون ما لا يسمع ولا يبصر ولا يعقل، وبالتالي لا يضر ولا ينفع.

فتُحِيل الآلهة الشهادة على ذلك الأمر لله تعالى ﴿فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ فإن الله تعالى شاهد بيننا وبينكم يا أيها المشركون، فإن ربنا يعلم أننا لم نكن نعلم من صنيعكم ذلك شيئاً، فلم نشعر بما كان منكم، فلم نأمركم به، ولم نعلم به أصلاً، فضلاً أن نأمركم بما لا نحسه ولا نعلم به. فأثبتوا غفلتهم عمن يعبدهم، وأن الله تعالى شاهد على ذلك، كما نفوا عن ذواتهم العلم والسمع والبصر والعقل.

ثم يخبر الله تعالى بحال الناس ذلك الوقت، الذي هو يوم الحشر ﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ ففي ذلك المقام، وذلك الوقت ﴿تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ﴾ أي: تعلم وتختبر وتذوق كل نفس جزاء ما عملت وقَدَّمت في سالف أمرها في الحياة الدنيا، فتذوق ثمرة ما كسبت ﴿وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ فرجع كل هؤلاء من المشركين وغيرهم إلى ربهم عَزَّ في علاه، الذي لا شك ولا ريب فيه ﴿مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ فهو مولاهم الحق، الذي يتولى أمرهم بتدبيره وحكمته وحكمه وجزائه. على عكس ما كانوا يزعمون من اتخاذهم الأرباب من الآلهة والأنداد ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ وغاب وضاع وبطل ما كانوا يفترون ويخترعون من الأكاذيب، من أن الأصنام تقربهم إلى الله زلفى. وقد وصف الله تعالى ذاته العظيمة بالحق ﴿وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ لأنه هو

(1) المرجع السابق (١٢/١٧١)

الرب والمالك والمعبود الحقيقي، فأما ما زعموا من ربوبية الأصنام فلم تكن حقاً، بل افتراء وزعماً منهم، إذ لم تغن عنهم اليوم شيئا، فهو المستحق للعبادة سبحانه وتعالى، وليس غيره من المخلوقات التي اخترعها أهل الشرك.

ثم ينتقل البيان إلى مقام التذكير بحجج ما أنزل الله تعالى على عباده من الأرزاق ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ فقل يا أيها الرسول صلى الله عليه وسلم لهؤلاء المشركين وغيرهم من الكفرة ﴿مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ فهل هناك أحد غير الله تعالى يُنَزِّلُ عليكم الرزق من السماء، والذي منه المطر، الذي تنبت به الأرض، ويخرج به الزرع والثمار التي تتغذون بها وأنعامكم، هل أحد يستطيع أن ينزل المطر من المخلوقين، وأن يُخرج لكم من الأرض ما تأكلونه وما تدخرون في بيوتكم، فهل هناك رب غير الله تعالى يخرج لكم ذلك من غير فعل منكم، فمن الذي يخرج لكم زروعاً مما تبذرونه من البذور الجافة التي لا حياة فيها، فتصبح تلك البذور مزروعات قد دبت الحياة في عروقها وأغصانها وثمارها. وهذا سؤال استنكاري وسؤال تقريري، فهو يقررهم بما يدركونه من أنه لا يرزقهم ذلك إلا الله تعالى. وهو في نفس الوقت سؤال استنكاري عن مخالفتهم لما هو متقرر لديهم، فلا أحد يستطيع أن يقول أنا الذي أُنْزِل المطر أو أُخرج الزرع من الأرض، فكيف إذاً تنحرفون عن عبادته إلى عبادة من لا يسمع ولا يعقل، ولا يمنع ولا يعطي.

بل ومن غزارة البيان إطلاق الرزق من السماء والأرض، ليشمل كل ما يأتي من العلو، سواء من المطر، أو جريان السحاب، أو تنقله من مكان إلى مكان من الأرض، وكذلك ما للشمس من أثر على الإنسان والأشجار، وما يقدره الله تعالى بحكمته من السماء. وكذلك إطلاق الرزق على ما يخرج من الأرض، ليشمل الإنبات من الزروع والأشجار، وغيرها مما هو عليها من الدواب التي خلقها الله تعالى في الأرض من غير سبب من الإنسان، وكذلك لتستوعب المعادن والمياه والسوائل التي يستخرجها الإنسان من الأرض، أو من باطنها أو سطحها، أو ما هو في قمم جبالها، أو ما يجري فيها من الأنهار والبحار. وفي هذا استثارة الذهن نحو ما يراه ويسمعه ويحسه ويشاهده، ليتعلم منه الحقيقة التي لا ينكرها الإنسان، مما يفيد أهمية التعليم بلفت الانتباه والتذكير، وتفصيل البيان.

وبعد أن لفت الله تعالى عباده إلى الرزق ومصادره وأسبابه، تدرج البيان إلى لفت انتباه الإنسان لذاته ﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ ﴾ فقل يا محمد لهؤلاء المشركين من هذا الذي أنشأ لكم هذه الحواس من السمع والبصر، فيملك التصرف فيها، بأن يزيد في قواها، أو يُضعفها، أو يبطل قوتها، فهل تستطيعون التحكم في زيادة أو خفض قوتها، وهي بين جوانحكم. وفي هذا استثارة عظيمة لعقول الناس. واستدلال لهم بما هو فيهم، وتقرير عجزهم على ما هو منهم، مع تقرير مُلك الله تعالى لهم بتحكمه في حواسهم، سواء كان انشاء أو إنماء وإصلاحاً، أو إعداما وإضعافاً لها. ومن قوة ملكه لها سبحانه وتعالى أن اختار وحدد مواقعها من الجسم، وبما هو أنسب وأليق بصورة الإنسان وهيئته، حتى جعل الإنسان في أحسن تقويم. ومن دقة خلقه سبحانه

وتعالى لها أن جعل في تكوينها ما يحقق لها الحماية والحصانة، وجملها بأحسن الجمال وأبدعه، وجعل في العين ما يحفظها، بالمادة الحمضية السائلة المتجددة، وجعل في الأذن مادة صمغية طاردة لما يؤذيها من الحشرات، ويحفظ عليها أداءها، فمن اختار للعين ما يناسبها، واختار للأذن ما يناسبها ويحميها؟

ومن فوائد المعاني أن الله تعالى أفرد السمع، بينما جمع البصر ﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ والمتأمل يجد عمق المعاني وعمق الدلالات التي يحملها هذا السياق، فمن حيث اللغة: أن السمع مصدر، والمصدر لا يُجمع، أما الأبصار فاسم، ليفيد التغاير بينهما في التحكم وفي الاستعمال، فالسمع حاسة لا يستطيع الإنسان أن يختار أو يمنع ما يسمع تلقائياً، فكأنه آلة واحدة، فلا يسمع بها تفاصيل الأصوات إذا اختلطت على السامع، فإن تداخل الأصوات يمنع السامع من توجيه السمع لأحد هذه الأصوات دون غيرها من الأصوات، ليفرده بالاستماع، وبالتالي أصبح السمع كأنه آلة واحدة مفردة. بينما البصر يستطيع الإنسان أن يحركه يمنة ويسرة، ويستطيع أن يحدق بعينه في شيء معين دون غيره، ويتنقل به بين المرئيات، فينظر به هنا وهناك. وكذلك الأفئدة، يستطيع أن ينشغل بأمر، وينتقل إلى أمر آخر، وثالث ورابع، ثم يعود للأول، أو الثالث، أو الثاني، وقد يربط بين بعضها، وقد يُقصي منها ما يريد، فلسعة مساحتها كانت في السياق على سبيل الجمع. وهذا من الإبداع والإعجاز في البيان، وفي علل المفارقات بين صياغة الألفاظ. فسبحان من أظهر الإعجاز في بيانه.

ثم يتدرج البيان الاستدلالي، والحوار التقريري إلى دقيقة أخرى من تصريف الله تعالى، وعجز المخلوق عن ذلك ﴿وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ فمن الذي يُخرج الحي من الميت؟ كخروج الطفل من النطفة، وخروج صغار الحيوان من النطفة، وخروج الزرعة من النواة الجافة التي لا حياة فيها، وخروج الطير من البيضة، وإنبات الزرع من الأرض الميتة، وخروج النبع من الأرض الجافة ﴿وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ وخروج الميت من الحي، كخروج النطفة الميتة من الإنسان والحيوان، وكخروج البيضة الميتة من الطائر الحي، وكذلك خروج النواة الميتة من الشجرة الحية. أليس في هذا ما يتقرر به أن الله تبارك وتعالى هو المدبر لهذا الكون، وما فيه من إنسان وحيوان ونبات وكواكب وأنهار، وغيرها من المخلوقات. وفي هذا ما يبين ويفيد أن دين الله تعالى حق، وأن منهجه قائم على الحقيقة والإقناع، من خلال إثارة الفكر إلى المحسوسات التي قد يغفل عنها الذهن.

ثم ينتقل السياق الكريم بالذهن والفكر إلى حقيقة عظيمة أخرى ﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ فمن يدير ويدبر أمر السماء والأرض وما فيهن؟ ومن يدبر أمركم وأمر خلقه؟ ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ فستكون الإجابة منهم: إنه الله تعالى، فإذاً لماذا لا تعقلون فتتقون، وتخافون عذاب ربكم ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ فقل لهم يا أيها

الرسول صلى الله عليه وسلم: فإذاً لماذا لا تتقون ربكم؟ فتخافون أن يعاقبكم على شرككم، وصرف العبادة لمن لا يملك شيئاً من أمر الخلق والتدبير والرزق. إنه سؤال يقررهم بأنهم مبطلون فاسقون إن لم يؤمنوا ويوحدوا الله تعالى، ففي ذلك تقريع لهم، بمخالفتهم الحقيقة التي لا يشكون فيها، ولا ينفونها، بل يعترفون ويقرون بها ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾

فبعد أن ذكر سبحانه وتعالى أنه هو الرزاق، وأنه يملك السمع والأبصار التي هي جزء من المخاطبين، وأنه الذي أعجز عباده فيما خلق ويخلق، فيخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي، وأنه المدبر لما خلق، فيتصرف في خلقه كيفما شاء، يتدرج الخطاب بعد ذلك من الله تعالى إلى التنويه بأنه هو صاحب تلك الآيات والمعجزات العظيمات ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ﴾ فإن الذي فعل وخلق تلك المخلوقات، ودبر شؤون الخلائق هو ربكم الحق، الذي لا شك ولا ريب فيه. فإذا كان هذا هو الحق الذي عرفتموه، فإن الحقيقة الأخرى أنه ليس خلاف هذا الحق إلا الضلال ﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ﴾ فإن أي أمر خلاف هذا الحق فهو افتراء وجور وبطلان، وخروج عن السبيل والصراط المستقيم. وجاء النص الكريم على صيغة سؤال استنكاري ﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ﴾ فليس بعد الحق إلا الكفر. ليفيد إبطال ما عُبد من غير الله تعالى، ونفي وجود أي حق آخر بعد هذا الحق المبين، وفيه إثبات أن كل أمر غير الحق فهو باطل. فهل يوجد حق بعد الحق إلا الضلال. وبالتالي فإن ادّعاؤكم أن هناك إله أو آلهة غير الله تعالى فهو باطل، مخالف للحق الذي أيقنتموه، فكل معبود غير الله تعالى باطل لا حقيقة له، لأنه مخالف للحق الذي لا حق بعده. وبالتالي كيف تتجهون بعقولكم نحو الباطل ﴿فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾ فكيف تصرفون عقولكم عن الحق نحو الباطل، تاركين وصادين عن الحق، ومجاهرين بما هو مضاد له. فتصرفون عبادتكم وتوجهكم لما لا يرزق، ولا يخلق، ولا يحيي ولا يميت. فإنها محاجة بليغة الأثر، وقوية البيان والحجة والبرهان، فلا يصد عنها إلا مكابر معاند.

ومن جميل السياق ودقته أن جاء الإنكار عليهم بعد تقريرهم بالحق، واعترافهم به، جاء بصيغة الاستفهام الإنكاري ﴿فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾ فإلى أي جهة تصرفكم عقولكم عن الحق، هل إلى معبودات لا ترزق ولا تحكم ولا تنشئ، ولا تحيي ولا تميت؟ فكيف تصرفون العبادة لغير الله تعالى وأنتم تعلمون أنه الله الخالق، المتصرف في ملكوته كيف يشاء.

ثم يتدرج الخطاب من الله تعالى إلى الحكم بالفسق والعناد على من يشاقق هذه الحجج الواضحة، والبراهين الساطعة بالحق ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ فكما أن هؤلاء الفاسقين الخارجين عن الحق قد تعمدوا الشرك عن علم ودراية وبيان، فإن عقابهم من الله تعالى هو

ابقاؤهم في الكفر، وعدم هدايتهم، جزاء لعنادهم ومشاقتهم لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم، ولما جاءهم من الحق. فكان الجزاء من جنس العمل. قال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى: أي: كما كفر هؤلاء المشركون، واستمروا على شركهم وعبادتهم مع الله غيره، مع أنهم يعترفون بأنه الخالق الرازق، المتصرف في الملك وحده، والذي بعث رسله بتوحيده، فلهذا حقت عليهم كلمت الله أنهم أشقياء، من ساكني النار[١] وقال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ﴾ أي: حكمه وقضاؤه وعلمه السابق ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ ﴾ أي خرجوا عن الطاعة، وكفروا وكذبوا ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أي: لا يصدقون[٢] فهو جزاء من الله تعالى. وهو كذلك دال على علمه السابق سبحانه لما سيكون من عباده، فعاقبهم بعنادهم، أن حقت كلمت الله تعالى وحكمه عليهم أنهم لا يؤمنون، فكان جزاء وفاقا.

﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

ويستمر السياق القرآني الكريم إلى بيان المزيد من الحجج والبراهين الدالة على بطلان الشرك، وذلك بالكشف والبيان عن عجز تلك المعبودات من أن تماثل بشيء من خلق الله تعالى، أو أن تُحْدِث في العباد خيراً أو شراً. فقال عَزَّ وجل ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ فاسأل يا نبي الله هؤلاء المشركين، هل يوجد من آلهتكم ومعبوداتكم من دون الله تعالى من الأصنام والأوثان من ينشئ خلقاً جديداً من غير أصل؟ فيُنْشِئوه ابتداء ﴿ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾ ثم يفنيه بعد أن أنشأه، ثم يعيده مرة أخرى كما أنشأه قبل أن يفنيه. والجواب حينئذ هو: لا أحد يستطيع ذلك. وبهذا الأسلوب الذي يخاطب العقل، والفهم، يكشف العجز لمعبوداتهم. فإذاً كيف تعبدون عاجزاً؟ فهو سؤال إعجاز حواري، ليردهم للحقيقة التي خلافها الباطل بعينه، وهذا والله من غزارة الإعجاز بكل صوره: العلمي والتعليمي والتربوي والدعوي، والذي يمثل الحجة البالغة القاهرة.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤٣٢/٢)

(٢) القرطبي، لجامع لأحكام القرآن (٢١٧/٨)

وبإضافة هذه الحجج لما سبق من الآيات والحجج والبراهين فإنه يعتبر استئنافاً إضافياً بطريقة تعداد الاستدلال وتنويع الحجج، وتقريرها بأوجه وأشكال مختلفة، لِتُؤكد عظمة الإعجاز البياني القرآني، وبلاغة وقوة الحجج القاهرة فيه. فبعد أن أقام الحجة على عجز معبوداتهم انتقل البيان إلى تقرير ما يعرفون من الحقائق، فإذا كانت أصنامكم عاجزة عن ذلك، فإن الله تعالى هو الذي أنشأ الخلق ابتداء من غير أصل، ثم يعيده مرة أخرى ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾ فإن الله تعالى يُنشئه من غير شيء، ويُحدثه من غير أصل، ثم يفنيه إذا شاء، ثم يعيده إذا أراد كهيئته التي كان عليها قبل الفناء. ومن ذلك الأرض الميتة، يحيها بالأمطار، ثم يميتها بالجفاف، ثم يحيها بالأمطار.

ثم ينتقل بهم البيان إلى السؤال الذي يثير علة غياب عقولهم عن الحقيقة، واتجاه عقولهم وسلوكهم إلى أضداد الحقيقة ﴿ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴾ فكيف تنقلبون عن الحق، وتتوجهون للباطل. والإفك هو الكذب. فإلى أي وجه عن الحق وقصد السبيل وطريق الرشاد تتوجهون وتنصرفون وتنقلبون عن الحق بتكذيبه وصده ورده. وهو سؤال يستعيد به الحقيقة، فما الذي يصرفكم عن الحق والحقيقة فتتجهوا إلى الباطل، فإنه أمر عجيب. فهو سؤال تعجب واستنكار وتوبيخ لمن يعاند الحق.

والسؤال في قوله تعالى ﴿ قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾ ليس هو من أجل انتظار الجواب منهم، لأنه لا يسعهم إلا الاعتراف، فهو سؤال تقرير عن معرفتهم لحقيقة عجز آلهتهم الذي يقرون به، ولا يمكن لهم إلا الاعتراف، فليست هناك مساحة تسعهم لغير الإقرار بذلك، ليأتي تقرير الحقيقة بعد ذلك مباشرة ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴾ فكان سؤالاً تقريراً لهم، عن عجز تلك الآلهة من أن تخلق شيئاً ابتداء، من غير أصل سابق، ليعقبه سؤال آخر، عن اتجاه عقولهم في الكذب، واختراع الإفك ﴿ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴾ فهو إنكار لمسارهم وحيادهم عن الحقيقة. فهو حوار بالغ الدقة وإفحام للمكذبين. وقصر لحقيقة الربوبية والألوهية على الله تعالى دون غيره، وكذلك قصر جوابهم على حقيقة واحدة، بأن الله تعالى هو منشئ الكون كله، ابتداء من غير أصل، ويفنيه ويعيده كما هو.

ثم يستأنف تبارك وتعالى المحاجة بلون آخر، ملاصق لحياتهم. فيقول الله تبارك وتعالى ﴿ قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ ﴾ فيقررهم بسؤال استدلالي إنكاري وتقريري آخر، فقل يا أيها النبي لهؤلاء المشركين مع الله تعالى آلهة أخرى ﴿ قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ ﴾ فهل لآلهتكم صفة القدرة على الهداية للحق؟ بأن تهدي غيرها، وموضحة لهم الحق من الباطل، والخير من الشر، وفي هذا استدلال بتقريرهم على عدم قدرة تلك الآلهة، وفي هذا حصر للجواب، وحصر امتناع ذلك عن الآلهة، وقصره على الله تبارك

وتعالى، وحصر لفكرهم في زاوية واحدة من التفكير، بما يمنع تشتت الفكر في شيء آخر، وهو أسلوب غاية في الدقة والبراعة التي تثبت أن هذا الكلام لا يمكن أن يكون إلا من عند الله تعالى، إذ فيه ارتقاء بالاستدلال، مع تنويعه وتكثيره، بحيث تعلوا وتقوى الحجة الفكرية بالمحسوس، بما لا يدع مجالاً للمراوغة، والفرار من الجواب الحقيقي. بل من دقة السؤال التقريري لهم، وتعجيزهم أن قال تعالى ﴿ قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم ﴾ فليس المطلوب منكم هو تقرير ذلك بجميع شركائكم، بل ﴿ مِن شُرَكَآئِكُم ﴾ بعضاً منهم، وفي هذا قوة التعجيز، وتقرير عدم قدرتهم، وعدم قدرة آلهتهم، ليكون المنطوق هو: كيف تعبدون عاجزاً؟

وفي هذا تقرير حقيقتين: الأولى عجز الآلهة عن أن تمنح غيرها التوفيق وبيان الحق، والإرشاد للأصوب والأحسن والأكمل، والحقيقة الثانية، هي: قصر الهداية بكمالها وشمولها على الله تعالى. وهي قضية متعلقة بأمرين: الأولى: هداية التوفيق، والذي لا يملكه إلا الله تعالى، والثاني: هداية التشريع: وهي هداية الدلالة، بأن يوضح للعباد ما ينصلح به شأنهم في الدنيا والآخرة، وذلك بما أنزل من الكتب، وما أرسل من الرسل، وخاتمتهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وآخر الكتب هو القرآن الكريم الذي نسخ ما قبله من الكتب السماوية المشرفة.

فبعد تقرير حصر الهداية التوفيقية، وهداية الإرشاد على أنها من الله تعالى، الواحد الأحد، الفرد الصمد، وذلك من خلال ما أرسل به رسوله صلى الله عليه وسلم، تتدرج المحاجة الربانية إلى المقارنة بين من يستحق العبادة ومن لا يستحقها ﴿ أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰ ﴾ فإن الذي يهدي إلى الحق توفيقاً وإرشاداً، ويُصلح اعوجاج العباد بالتوفيق والإرشاد، هل هو الأحق بأن يُتَّبَع في أمره ونهيه، أو أن الأحق بالاتباع هو القاصر عن هداية نفسه، ودفع الشر عنها، فضلاً عن أن يهدي غيره، ويدفع الشر عنهم؟ ﴿ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰ ﴾ إلا في حالة أن يهديه غيره، فهو عاجز إلا أن يتفضل عليه غيره بالهداية. فالآلهة لا تحمي غيرها إلا أن يحميها غيرها مما يصيبها، فكيف إذاً تُعبد وهي في كمال عجزها، وتتركون الذي انفرد بهداية الدلالة وهداية التوفيق.

ومن دقة ألفاظ البيان قوله تعالى عن عجزهم ﴿ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰ ﴾ فوردت كلمة ﴿ يَهِدِّيٓ ﴾ مشددة حرف الدال، لتدل على بذل الجهد، ومع ذلك لا يحصل منه إلا ﴿ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰ ﴾ أي: إلا أن تحصل له الهداية من غيره. فيهديه الله تعالى، بينما وردت هداية الله تعالى بالتخفيف لبيان سرعة تحققها ﴿ أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ ﴾ وهذه من غزارة الإعجاز البلاغي في البيان القرآني الكريم.

ثم يتدرج بهم البيان في المحاجة إلى الحكم على أنفسهم، وذلك بسؤال استفهامي تعجبي واستنكاري وتقريري ﴿ فَمَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ﴾ فما الذي حاد بكم في الحكم لآلهتكم بما لا تستحق من العبودية؟ فما

الذي صرفكم عن الحقيقة، فتحكمون على الحق بالباطل، وتحكمون للباطل بأنه الحق؟ فأي عقول هذه؟ فما هو الذي لكم في هذه الأصنام من خير، حتى تتوجهون لها بالعبادة من دون الله تعالى؟ فعجب أمركم أيها المشركون.

ثم يبين الله تعالى حقيقة هؤلاء المشركين ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ فإن منهج هؤلاء المشركين في عبادتهم قائم على التخمين ﴿إِلَّا ظَنًّا﴾ إلا مجرد الظن والتخمين والحدس، وليس عن بصيرة ويقين. ثم يبين الله تعالى مدار الظن، وأين يسير بأهله ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ فمجرد الظن والتوهم والتخمين لا يغني من الحق شيئا، لأنه لا يقوم مقام العلم، كما أن الحق لا يُدْرَك بالظن، وأما أمر الدين فمبني على العلم، الذي يتضح به الحق من الباطل، والصواب من الخطأ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ فإن الله ربكم سبحانه وتعالى ﴿عَلِيمٌۢ﴾ وهي صيغة مبالغة، تفيد كمال العلم والإحاطة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ فإن الله تعالى عليم بإحاطته لكل ما يقومون به من الشرك وغيره، فلا يخفى عليه سبحانه وتعالى من أمرهم شيء، وفي هذا تحذير لهم، من أن الله تعالى لا تخفى عليه منكم خافية.

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا
رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن
دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ
مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ
بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ
وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾
وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ
ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾

بعد تقرير الله سبحانه وتعالى بالحجج العظيمة على توحيده وربوبيته، وبطلان المعبودات من غيره عَزَّ وجل ينتقل السياق الكريم إلى إقامة الحجة على المشركين فيما يتعلق بالقرآن الكريم، وإثبات أمر النبوة، وإبطال دعواهم بأن القرآن مُفترى من دون الله تعالى، وتعميق الحجة بأنه كتاب الله تعالى العزيز الحكيم، الذي لا يأتيه

الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من الرحمن الرحيم. فقال جَلَّ جلاله ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ فبدأت الآية الكريمة بنفي واستحالة أن يكون هذا القرآن من عند غيره عَزَّ وجل، بما يفيد أن نظم ومضمون القرآن ممتنع على مخلوق أن يأتي بمثله، لما فيه من الإعجاز في كل وجه ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ فإن نسقه وبيانه وأحكامه ومضمونه وتشريعه وبلاغته معجز، وأعطت الجملة المبالغة في نفي الافتراء لإعجازه العظيم، وعدم قدرة المخلوقين أن يأتوا بسورة من مثله ولو اجتمعوا،. فلوا كان من عند غير الله تعالى لما صح ولا استقام إعجازه. فما وُجِد من الخلق من يمكنه أن يفتري هذا القرآن.

وأثبت النص الكريم أن كل أحد هو من دون الله تعالى ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ ونفى أن يستطيع أحد من دون الله تعالى أن يمكنه الافتراء بمثل هذا القرآن ﴿أَن يُفْتَرَىٰ ﴾ وسمى الذي يأتي من خلقه افتراء، لقوة إعجازه، وعدم قدرة المخلوقين على مثله، وكذلك فإن نفي القدرة لم يكن حصراً على الإنسان، بل إن نص الآية الكريمة شامل لجميع من هم دون الله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ ومن إعجاز حجية هذا النص والحكم الكريم أنه على مدار السنين والأعوام لم يقم رجل ولا جماعة بتحرير شيء مثله، ولو كانت آية واحدة.

وبعد نفي الله تعالى أن يحرر غيره من دونه مثل هذا القرآن الكريم، أخبر بما يثبت صدق كتابه وسلامته من كل افتراء. فقال عَزَّ وجل ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ فهو مصدق لما قبله من الكتب السماوية ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ فهو شاهد لصحتها، فيمتنع التعارض والتناقض فيما بينه وبين الكتب السابقة، وهذه حجة على قوة التناسق، والهدف والمضمون للقرآن الكريم مع كتب الله تعالى السابقة. مع أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يتعرف على تلك الكتب السابقة، فهو نبي أمي، لا يكتب ولا يقرأ. وكذلك من حججه وبراهينه أنه مُفَصِّل ومُبين لتلك الكتب ﴿وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ فهو مبين للحلال والحرام، وللتشريع، وحال الأمم السابقة، وغير ذلك مما فَصَّله الكتاب. وكونه متوافق معها ومفصل لها، فهو دليل أنه من رب العالمين ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ فلا ريب ولا شك أنه من الله تعالى، رب العالمين، فنفى بهذا الاستدلال جميع أنواع الشك، ليثبت أنه من

الله العزيز الحكيم. وهذا من غزارة البيان الإعجازي. وجاء لفظ الكتاب مفرد ﴿وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ ليفيد جنس الكتاب، ليجمع ويستغرق جميع الكتب السماوية من دون تعداد لها.

ويتدرج التوجيه الكريم إلى المزيد من الإيضاح عن شأن القرآن الكريم، فينتقل السياق العظيم من النفي إلى الاستفهام الإنكاري التعجبي، وإلى تعجيز الخصوم المنكرين، بما يفيد نفي ما يقوله المشركون من الافتراء، فقال تبارك وتعالى ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أو فهل يقولون افتراه محمد صلى الله عليه وسلم من عنده، ويَدَّعي أنه من عند الله تعالى؟ بعدما تبينت لهم دلائله وحججه وبراهينه أنه كتاب معجز في نظمه ودلائله وتشريعه وبلاغته وبيانه، بما لا يدع مجالا للشك بأنه كلام الله تعالى، فإنه أمر عجيب، فهو استنكار لمن هذه حالهم، والأمر لا مجال فيه للشك والريبة.

ثم يتدرج معهم التأكيد إلى حال القدرة البشرية إن كانوا صادقين ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ فإن كانوا مصرين على دعوى الافتراء فليأتوا بسورة واحدة تماثل سورة من سور القرآن الكريم، بل أتيحت لهم الفرصة أن يجمعوا كل من يتوقعون أنه قادر على ذلك من الفصحاء والبلغاء إن كنتم صادقين في دعواكم ﴿وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ وبالتالي فإن لم تستطيعوا مع تسهيل الاجتماع والمعاونة والمشاركة والانتقاء والمدارسة، فالنتيجة إذاً أنكم كاذبون ولستم بصادقين. وفي هذا غاية التحدي الإعجازي للإمكانات العقلية البشرية مجتمعة من أن يأتوا ولو بسورة واحدة مماثلة لإحدى سور القرآن الكريم. وبالفعل منذ أن نزل القرآن الكريم لم يأت أحد ويقول: أنا أنشأت كلاماً مماثلاً للقرآن الكريم، ولن يأتي أحد إلى أن يفني الله تعالى الدنيا ومن عليها. وكفى بذلك إعجازاً وحجة.

ثم يخبر الله تعالى عن غور حالهم لإدراك القرآن الكريم وعجزهم ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾ فقد بادروا بتكذيب القرآن قبل أن يعلموا بعلمه، ويتمكنوا من الإحاطة بما فيه من العلم، سواء من ذكر الجنة والنار، والبعث والجزاء، وحال الأمم السابقة، وتفاصيل أحكامه وتشريعه، وحججه وبراهينه، وعاقبة من كذب به. وبالتالي أوقعوا تكذيبهم به وهم جاهلون بما فيه من العلم، دون أن يتفقهوا فيه ويعلمونه، مما يدل على استكبارهم ومبادرتهم وتماديهم في الكذب والافتراء، وهذا أمر أعجب في شأن تكذيبهم، مما يدل على حماقتهم، وإمعانهم في التكذيب من غير دليل.

ثم يرتقي وصف حالهم في الافتراء إلى أن كذبوا به ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ بمعنى: بل والأعجب من ذلك أنهم كذبوا به ولما يأتيهم عواقب هذا الافتراء ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ فقد كذبوا به قبل أن يأتيهم عاقبة

التكذيب بالقرآن الكريم، وما يؤول إليه الأمر والشأن، أي: حتى ولم يكن معهم شيء من علم تأويله، مما يدل على استعجالهم في التكذيب من غير تثبت، فكان الأولى بهم التريث حتى يأتيهم تأويله مباشرة من الرسول صلى الله عليه وسلم، أو بالسؤال منهم عما جهلوا.

وقد شملت دلالة ﴿تَأۡوِيلُهُۥ﴾ دلالتين: بمعنى تفسيره، وبمعنى عاقبة ما يؤول إليه تكذيبهم به من العذاب الذي توعد الله تعالى به المكذبين، وهذا من بلاغة النص المبين الذي تضافرت معانيه في تعدد دلالاته. قال الإمام الطبري رحمه الله تعالى: ولما يأتيهم بعد بيان ما يؤول إليه ذلك الوعيد الذي توعدهم الله في هذا القرآن[١] وقال القرطبي رحمه الله تعالى: ولم يأتهم حقيقة عاقبة التكذيب من نزول العذاب بهم[٢] قال ابن كثير: أي ولم يحصلوا ما فيه من الهدى ودين الحق إلى حين تكذيبهم به[٣] وقال الشوكاني: ما يؤول إليه لمن تدبره من المعاني واللطائف[٤] وقال الزمخشري: ولم يأتهم بعد تأويل ما فيه من الأخبار بالغيوب، أي عاقبته[٥] فاستوفى البيان العظيم أوجه ما يتعلق بتأويل القرآن فهماً وعاقبة لمن جحد وكذب به.

ثم ينتقل البيان الكريم في تدرجه إلى قياس كذبهم على من كان قبلهم، فإن تكذيبهم هذا مماثل لتكذيب من كان قبلهم من الأمم السابقة مع أنبيائهم ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ فليس الأمر بجديد، فلا تبتئس أيها النبي صلى الله عليه وسلم، فلك فيما سلف من الأقوام مع أنبيائهم عظة ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فتأمل كيف عاقب الله تبارك وتعالى تلك الأمم الظالمة، بتكذيبهم لما أنزل الله تعالى من الكتب والتشريع، وما بعث من الرسل. وفي هذا تحذير لهم، من أن يصيبهم ما أصاب الذين من قبلهم من المكذبين للحق، وما جاءتهم به الرسل من عند الله تعالى.

ويتدرج البيان الكريم إلى النتيجة التي سيؤول إليها حال الناس، وخاصة من كان في عهده صلى الله عليه وسلم ﴿وَمِنۡهُم مَّن يُؤۡمِنُ بِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن لَّا يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ ومن هؤلاء الذين بُعثت إليهم يا محمد من يؤمن بهذا القرآن، ويتبعك، وينتفع بما أُرسلت به ﴿وَمِنۡهُم مَّن لَّا يُؤۡمِنُ

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٨٤/١٢)
(٢) القرطبي، لجامع لأحكام القرآن (٢٢٠/٨)
(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤٣٣/٢)
(٤) الشوكاني، فتح القدير (٤٤٦/٢-٤٤٧)
(٥) الزمخشري، الكشاف (٣٤٤/٢)

بِهِۦ ﴾ ومنهم من لا يؤمن به، فيموت على كفره، ويُبعث عليه ﴿ وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾ وربك عَزَّ في علاه أعلم بمن يستحق الهداية، ومن يستحق الضلالة، وهو العادل الذي لا يجور، بل يعطي كل أحد ما يستحقه، تبارك وتعالى، وتقدس وتنزه لا إله إلا هو[١] وفي هذا إعجاز غيبي لما سيكون منهم، بأنك سترى من يؤمن من هؤلاء الكافرين بهذا القرآن، ومن لا يؤمن به، فيبقى حتى يموت كافراً.

وخص سبحانه وتعالى القرآن بالذكر في تحقيق الإيمان ﴿ وَمِنۡهُم مَّن يُؤۡمِنُ بِهِۦ ﴾ لأن سياق الآيات فيما سبق عن القرآن الكريم ، فإن من يؤمن بالقرآن الكريم حتماً سيكون مؤمناً بمن أنزله وبمن نزل عليه، وهذه من براعة ودقة السياق في القرآن الكريم، وبلاغة الإيجاز من غير تعداد وتكرار. ومن جميل بلاغة البيان أن السياق يستوعب من نَزَل فيهم القرآن، ومن سيأتي من بعدهم إلى يوم القيامة، فمنهم من يؤمن، ومنهم من يكفر، وكذلك شمولية علم الله تعالى بالمفسدين ﴿ وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾ جاء سياقها عام، ليشمل علم الله تعالى بالمفسدين في ذلك الوقت، وفي كل وقت وحين، فعلم الله تعالى واسع لا حدود له عَزَّ وجل.

ثم ينتقل التوجيه الكريم من الله تعالى إلى النبي صلى الله عليه وسلم، لبيان المنهج الذي يستخدمه عليه الصلاة والسلام مع من يكذب به ﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمۡ عَمَلُكُمۡۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾ فلما تعيَّن أن منهم من يكذب به، ومنهم من يؤمن به، جاء البيان بمنهجية التعامل مع المكذبين به، فيا أيها النبي قل لمن كذبوك ﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمۡ عَمَلُكُمۡ ﴾ فإن لي عملي وثوابي من الله تعالى، وأنتم لكم عملكم من الكفر والجحود وما يترتب عليه من الجزاء والعذاب الذي وعد الله تعالى به، وكذلك فيه إعلان البراءة ﴿ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾ فلا تنالون شيئاً من ثمرة عملي، ولا يصيبني شر من امتناعكم وكفركم وشرككم، فكل له عمله، وما يترتب عليه. مما يفيد المتاركة والمباعدة.

ثم يخبر الله تعالى بمنهج وحال استماع المشركين للنبي صلى الله عليه وسلم عندما يقرأ القرآن ﴿ وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾ فبعضهم يستمع إليك، مما يفيد أن البعض الآخر معرض تماماً، فلا يستمع، وأما هؤلاء الذين يستمعون إليك فإنهم يستمعون بظواهرهم، وأما قلوبهم فلا تعي شيئاً، وطالما أنهم كذلك في منهج إعراضهم، فقراءتك لهم كمن يقرأ على الأصم الذي لا يسمع ما يُقال له

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٤٣٣)

﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ﴾ فورد السياق بصيغة الاستفهام ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ﴾ بما يفيد النفي، فإن حالهم هو حال الأصم من الناس، فبالرغم من انتفاء حالة الصمم عن أسماعهم إلا أن حال قلوبهم مدبرة عَمَّا يسمعون من القرآن وكأن بهم صمم، بما يفيد شدة النفرة والتباعد القلبي، والمتاركة المتعمدة لما يسمعونه حقيقة، مما يصور حالهم أنه حال من تعذر انتفاعهم به، وعدم تحقق الهداية لهم، وبالتالي يتعذر ويمتنع عليك أيها النبي أن تحصل منك لهم الهداية، فكيف إذا انظم إلى ذلك أنهم لا يعقلون، فمن شدة تعذر هدايتهم، أنه لو انظم إلى صممهم انعدام عقولهم التي يُدْرَك بها لما تحققت لهم الهداية ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ﴾ فالأصم العاقل إذا أُفْهِم يعقل ويهتدي، وأما هؤلاء فحالهم كمن اجتمع في حواسهم الصمم وعدم وجود عقل الرشد. وهذا من دقة الآية الكريمة في تصوير حالهم بأدق المعاني الوصفية، وأبلغ النص في الوصف. فعجيب حالهم هذا.

ونوع من هؤلاء الكافرين أنهم ينظرون إليك، فيظن من يراهم أنهم مسترسلون في تتبع قولك لهم ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾ ولكن الأمر خلاف ذلك، فإن عيونهم كمن هو أعمى، فلا يتبصر في سمتك، وحُسن خُلُقك، وما منحك الله تعالى من الحلم والتؤدة، ودلائل نبوتك الظاهرة، فنتيجة حسدهم وغيرتهم، وبغضهم، فإن حالهم هو حال الأعمى الذي لا يبصر فيك من المحاسن ما يبصره الباحثون عن الهداية، الذين وفقهم الله تعالى للهداية، فيرون فيك فيض عطاء الله تعالى، وما خصك به دون غيرك من علامات النبوة، وكرامة الاصطفاء. قال الزجاج رحمه الله تعالى: ومنهم من يُقبل عليك بالنظر، وهو من بغضه لك، وكراهته لما يرى من آياتك كالأعمى[1] فلن تستطيع هداية هؤلاء الجفاة المكابرين الصادين عن الحق ﴿أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ﴾ فحالهم هو حال الأعمى، وأن كانوا يبصرون حقيقة، إلا أنهم لم ينتفعوا بأبصارهم.

مما يفيد أن موانع استخدام الحواس عن إدراك الحقيقة وتحصيل العلم والفهم هو الانحراف بها عن الإدراك الحقيقي، فحاسة السمع وحاسة البصر، إذا تغشاها الكبر والحسد، انتفى عنها إدراك الحقائق، وجعلها تتمادى في الإصرار على الحكم السابق الذي اعتمدته تلك الحواس من القلب الضال عن الحق، وذلك من خلال قوة العقل، الذي لعبت وعبثت فيه موانع وحواجب الحسد والظلم والكبر. مما يفيد أهمية أن يتنبه الإنسان لهذا

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣١/٤)

الأمر، ويستعين بالله تعالى، ويسأله إلهام الرشد، والوقاية من شر النفس، وقد كان من دعائه صلى الله عليه وسلم (اللهم الهمني رشدي، وأعذني من شر نفسي)[١]

وبعد هذا التحليل لحال هؤلاء الكافرين المشركين يقول الله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾ فإن الله سبحانه وتعالى لا يظلم أحداً من عباده، فيعاقبه بما لم يكتسب، أو يمنع عنه ما يهتدي به، أو يقرر عليه المعصية، بل هو الذي يكتسب ذلك بنفسه. مما يفيد أن الله تعالى عندما أخبر عن مستقبل العباد فإنما يخبر عن علمه السابق بما سيحصل من هؤلاء العباد، وإلا كل نفس قد ألهمها فجورها وتقواها، وخلقهم حنفاء على الفطرة، كما جاء في الحديث (خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم)[٢] فالإنسان هو الظالم لنفسه، باختياره الكفر والشرك والنفاق والمعاصي، فلا يلوم إلا نفسه.

قال الشوكاني رحمه الله تعالى: ذكر الله تعالى هذا عقب ما تقدم من عدم الاهتداء بالأسماع والأبصار، لبيان أن ذلك لم يكن لأجل نقص فيما خلقه الله لهم من السمع والعقل والبصر والبصيرة، بل لأجل ما صار منهم من التعصب والمكابرة للحق، والمجادلة بالباطل، والإصرار على الكفر، فهم الذين ظلموا أنفسهم بذلك، ولم يظلمهم الله شيئاً من الأشياء، بل خلقهم وجعل لهم من المشاعر ما يُدركون به أكمل الإدراك، وركب فيهم من الحواس ما يصلون به إلى ما يريدون[٣] مما يفيد أن امتناع الإنسان عن الحق ليس من علة في الخلقة، ولا في قصور الحواس، بل إن الله تعالى أكمل خلق الإنسان في أحسن تقويم، ولكن هناك من البشر من يعاند ويكابر، ويحسد، بالرغم من وضوح الحق أمامه كوضوح الشمس. كما يفيد هذا البيان من الله تعالى أنه يجب على الإنسان أن يتأمل ببصيرته فيما يبصر ويسمع، وأن يعقله بتدبر وتفكر.

وقد قال الله تعالى في سورة الإنسان ﴿ إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ فإنا قد أظهرنا له بالبيان الواضح طريق الهدى، بالأدلة الكونية التي تحيط به، وبالنعم التي ينعم بها ويتفيأ فيها، من السماء والأرض والجبال، والشمس والقمر، والليل والنهار، وغيرها مما يحسه ويراه ويسمعه، وبما جاء من الرسل عليهم السلام، وإنزال الكتب. وما فطره الله تعالى عليه، فعليه أن يتحمل مسؤولية اختياره، كما قال تعالى في سورة الإنسان ﴿ إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ فإما أن يكون من الشاكرين لربهم على

(١) الترمذي، الجامع الصحيح (٤٦٨/٦) برقم (٣٤٨٣)
(٢) مسلم، صحيح مسلم (٢١٩٧/٤) برقم (٢٨٦٥)
(٣) الشوكاني، فتح القدير (٤٤٨/٢)

هذا الإيجاد، وهذا الإنعام، فيطيع ويمتثل لله تعالى باتباع رسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ منكراً لإنعام الله تعالى عليه، فيكفر بالرسل، والكتب، والآيات والحجج. وبالتالي فإن عليه أن يتحمل مسؤولية اختياره، كما قال تعالى في سورة التكوير ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ وكذلك قوله عزَّ وجل فيفي سورة الإنسان ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴾ فقد جعل الله تبارك وتعالى بحكمته للإنسان مشيئة من الاختيار، وأوضح لهم طريق الخير وطريق الشر، وهذه المشيئة تحت مشيئة الله تعالى، فلا يعني ذلك أن الإنسان منفرد بها، بل إن الله سبحانه وتعالى هو الذي منحها للإنسان بمشيئته، ويمنعها بمشيئته. فيصحح سبحانه وتعالى مفاهيم عباده، ويُعَلِّمهم معرفة عظيم سلطانه، حتى يعلموا بما يكون منهم، وما يجب عليهم، وأن ذلك لا يعني أنهم خارجين عن مشيئته جَلَّ جلاله. كما يصحح أفهام من حاد فهمه عن الصواب. وهذا من عظيم التدبير والحكمة والعدل من الله العزيز الحكيم. كما ورد في سورة الروم ﴿ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَا ﴾ وهو الإسلام. فمعنى ﴿ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ﴾ أي: الإسلام. قال مجاهد رحمه الله تعالى: الإسلام[1] والتي يبينها قوله صلى الله عليه وسلم (كل مولود يُولد على الفطرة. فأبواه يهودانه أو ينصرانه، أو يمجسانه)[2] أي: يولد على الإسلام. بما يفيد ويبين أن الإنسان قد وُلِد وهو مفطور على الإسلام، دون تفاصيله، فإن قلبه وميوله لمنهج هذا الدين، فيجد في أوامره ونواهيه وتشريعه ما يطمئن إليه قلبه. ولذلك ورد في تكملة الحديث تأثير غيره عليه (فأبواه يهودانه أو ينصرانه، أو يمجسانه) بما يبين أن تأثير غيره عليه هو أمر حادث طارئ مخالف لِمَا فُطر عليه المولود، من تأثير الوالدين، وممن يُحيطون به، ويتعايش معهم. فإذا عُرِّفَ وعَرَفَ الإسلام أقبل عليه ما لم يكن هواه وشهواته قد سيطرت عليه، فآثرها على غيرها من الحق، ولم يُرد مفارقتها إلى ما أدرك في قرارة نفسه أنه الحق.

﴿ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡۚ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولٞۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمۡ قُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ

(١) ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٩٣/١٨)

(٢) البخاري، الجامع الصحيح (٤٢٤/١) برقم (١٣٨٥)

﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَلَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوۡ نَهَارٗا مَّاذَا يَسۡتَعۡجِلُ مِنۡهُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓۚ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ﴿٥٢﴾﴾

ثم ينتقل السياق الكريم إلى يوم الحشر الذي يُحشر فيه هؤلاء الكافرين ﴿ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّنَ ٱلنَّهَارِ ﴾ فاذكر يا أيها النبي صلى الله عليه وسلم ساعة حشر هؤلاء الكافرين، فتتقاصر عندهم حياتهم الدنيا، وحياة البرزخ، وكأنها ساعة من ساعات النهار، فكأن طيلة حياتهم التي مكثوها لا تعادل إلا ساعة، أمام هول ما يرون، فمتعتهم الدنيوية أصبحت حقيرة في نفوسهم، وقصيرة في زمنها. مما يفيد أنه مهما كانت متعة الدنيا مما يعيشه الإنسان فإنها قصيرة لا تعادل ساعة من نهار، ولا أدل على ذلك مما يفوت من متع الإنسان في الدنيا التي مرت به من عمره، وكأنها ساعات ولحظات، لم يبق من أثرها شيء.

ثم يذكر سبحانه وتعالى موقف رؤية الجاحدين لبعضهم البعض ﴿كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡۚ ﴾ ولهذا التعارف وجهان من الدلالات، من غير تعارض بينهما، فالأول: تعارف الناس على بعضهم البعض على ما كان من معرفة سابقة في الدنيا، قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي يعرف الأبناء والآباء والقرابات بعضهم لبعض، كما كانوا في الدنيا[١] والثاني: أن هذا التعارف هو تعارف التوبيخ والتقريع لبعضهم البعض، قال ابن عباس رضي الله عنهما: إذا بُعثوا من القبور تعارفوا، ثم تنقطع المعرفة. وقال الزجاج رحمه الله تعالى: وفي معرفة بعضهم بعضا، وعلم بعضهم بإضلال بعض، التوبيخ لهم، وإثبات الحجة عليهم، وقيل إذا تعارفوا وبخ بعضهم بعضا، فيقول هذا لهذا: أنت أضللتني، وكَسَّبتَني دخول النار[٢] فمن غزارة البيان وبلاغته أن أعطت دلالته النوعين من التعارف، والذي سيكون في ذلك اليوم من غير شك ولا ريب. وهذا من دقة الإعجاز البياني في كلام الله تعالى، وعظيم أهوال يوم القيامة.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٤٣٤)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٤/٣٢)

ثم يخبر الله تعالى بفداحة خسارة الكافرين ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ فقد حاز الذين كذبوا بيوم البعث والحساب والجزاء، والجنة والنار خسارة الفوز بالنجاة من عذاب الله تعالى، ودخول الجنة والفوز برضاه سبحانه وتعالى ﴿ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ فما كانوا موفقين في إصابة الحق. وفي هذا موعظة وتحذير لهم ولكل أحد من ذلك الخسران المبين.

وأما فيما يتعلق بعقابهم في الدنيا فيخبر الله تعالى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بأن الأمر له عَزَّ وجل ﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴾ فإما أن نسارع ونعجل الانتقام منهم، ببعض ما نعدهم، وليس بجميعه ﴿ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ ﴾ فترى ذلك في حياتك، فتَقِرّ عينك منهم ﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴾ أو لا نريك ذلك في حياتك، فنتوفاك قبله ﴿ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ﴾ فيرجعون إلينا في الآخرة، وعند ذلك نعذبهم في الآخرة بما يستحقون من العذاب. فتراهم في ذلك العذاب، فإن لم ننتقم منهم عاجلاً انتقمنا منهم آجلاً، فالانتقام فيهم حاصل ومؤكد. وقد شاهد صلى الله عليه وسلم هزائمهم، وقتلهم وأسرهم، وانكسار شوكتهم ﴿ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴾ فإن الله عَزَّ وجل شهيد على أفعالهم، فلا يغيب منها شيء أبداً، ليفيد الحساب والجزاء على ما كان منهم. وهذه الخيارات تفيد أن الحكم لله تعالى فيما يفعل مع عباده، فإن إمهاله لهم سبحانه وتعالى لا يعني تركهم وإهمالهم، كما أن تعجيله لهم عَزَّ وجل ببعض العقوبة لا يعني أن ذلك هو جميع ما يستحقون من العذاب. فإن لله تعالى الحكمة البالغة فيما يقدم ويُؤخر.

ويبين الله تعالى سنته وعدله مع الأمم السابقة، وعنايته بهم، فإن الذي يجري اليوم هو ما جرى للأمم السابقة، فاعتبروا بها ومنها ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ فقد جعل الله تعالى لكل أمة من الأمم السابقة رسولاً إليهم، وهذا من كمال عنايته وكمال عدله. فإذا جاءهم الرسول بالبينات والحق، واختلفوا عليه، فآمن بعضهم وكفر بعضهم، حكم الله تعالى بينهم بالعدل، دون أن يظلم أحداً منهم بغير ما اكتسب. وفي هذا بيان لسنته سبحانه وتعالى في عباده، فاعتبروا يا أيها الناس بمن قبلكم، لتفيد الإنذار والموعظة.

ثم يبين الله تعالى ما كان منهم من القدح فيما أُخبروا به من العذاب، وبما أصاب الأمم السبقة ممن كذبوا بالرسل ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ فهم مستنكرون ومستبعدون هذا الوعيد

من العذاب، فينكرون وقوعه، بما يفيد القدح فيما ينذرهم الله تعالى ورسوله به صلى الله عليه وسلم، فيقولون هذا القول وهم في أتم الجحود ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ مما يفيد تكذيبهم لما يُوعَدُون، فحال المكذبين بالمرسلين عليهم الصلاة والسلام هو قولهم: فإن كنت أيها النبي ومن معك صادق فيما تقول، فمتى يكون هذا الذي تخوفنا وتهددنا به، أي: أمضيه وحدد لنا موعده، مما يفيد قوة التمادي في التكذيب، مع الاستهزاء والسخرية منهم والاستعلاء.

ويوجه اللهُ تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بما يقول لهم جواباً على استفسارهم عن وقت العذاب الذي يحذرهم منه ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ فيقرر لهم الله تعالى على لسان عبده ورسوله محمد صلى الله علي وسلم، أنه لا يملك لنفسه تحقيق نفع، ولا أن يدفع عن نفسه ضر، إلا بما يشاء الله تعالى، فكيف له أن يصيب غيره بالضرر؟ وفي هذا عظة لهم ولكل مؤمن، بأنه عليه الصلاة بشر، قد اصطفاه ربه تبارك وتعالى، وخصه بخصائص، ونفى عنه القدرة على أن يحقق لغيره بإرادته ما يريد أو يريدون. مما يفيد أن من تحقيق التوحيد هو صرف عبادة الدعاء لله تعالى وحده لا شريك له. وفي الاستثناء دلالة عظيمة ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ فما من نفع أطلبه وأسعى إليه فلا يتحقق إلا بمشيئة الله تعالى، وما من ضر أسعى لدفعه وتوقيه، فلا يندفع ولا يُدفع إلا بمشيئة الله تعالى، ليعرف الإنسان أنه لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وأن السعي لتحقيق الخير، أو لدفع ضر إنما يكون بمشيئة الله تعالى، ليتربى المؤمن على الالتجاء إلى الله تعالى، والدعاء والتضرع إليه عَزَّ وجل في كل محبوب ومطلوب، وفي كل مكروه ومدفوع.

ثم يوجه الله تبارك وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يبين لهم ولغيرهم أن الآجال بيد الله تعالى، بل حتى آجال الأمم ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ فلكل أمة، ولكل قرن مدة عمرية مقدرة محددة ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ فإذا انقضى أجلهم المحتوم عليهم من الله تعالى فلا يتأخرون عنه بأي سبب من الأسباب ولو ساعة واحدة، ولا يتقدمون عليه بأي سبب من الأسباب ولو ساعة واحدة. مما يغرس في المؤمن الطمأنينة والتوكل على الله تعالى، ويغرس فيه رباطة الجأش، وشجاعة القلب، ويغرس فيه الرضا بما يفوت وبما يتحقق في الآجال وفي غيرها من المحصلات الدنيوية.

ثم يتدرج التوجيه الكريم في الإخبار والوعظ والتوجيه إلى الإنذار والتحذير ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ قل يا أيها النبي لهؤلاء الكفرة المشركين: فأخبروني لو أن الله تعالى أرسل عليكم عذابه ﴿بَيَٰتًا﴾ وقت نومكم ليلاً ﴿أَوْ نَهَارًا﴾ وقت طلبكم الرزق والكسب

في النهار ﴿مَّاذَا يَسۡتَعۡجِلُ مِنۡهُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ فماذا تستعجلون من العذاب غير هلاككم، وهو سؤال إنكار عليهم في استعجالهم العذاب، الذي قالوا عنه في آية سابقة ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ لأن استعجال العذاب مما تكرهه النفوس، وتنفر منه، فما هو مقتضى استعجالكم للعذاب، غير أنكم ستندمون على ما استعجلتم عليه، وفي هذا وعظ وتنبيه وتذكير لهم، مما يدل على رحمة الله تعالى، إذ يقابل استهزاءهم باستعجال العذاب بوعظهم وتنبيههم بخطأ وخطر كلامهم عليهم.

ثم يتدرج معهم سبحانه وتعالى في الوعظ والإرشاد إلى كيف يكون حالهم إذا وقع بهم العذاب، هل سيؤمنون ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾ هل ستؤمنون حال لا يُقبل منكم الإيمان عند وقوع العذاب بكم؟ وفي هذا وعظ لهم، ببيان هول ما يستعجلونه من العذاب فيما لو وقع بهم، وكذلك أنه لا ينفع إيمانهم عند وقوع العذاب، فإذا وقع العذاب بكم، ستقولون آمنا، وهنا لن يُقبل منكم ذلك، فَيُقال لهم حينذاك ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ الآن تؤمنون حين رأيتم العذاب، وقد كنتم تستعجلونه على سبيل السخرية منكم والاستهزاء برسول الله صلى الله عليه وسلم وما جاءكم به من الحق. فإنها صورة للموقف كيف سيكون لو كان الأمر كما يقولون. وفي هذا غاية الوعظ والإرشاد والترهيب من الله تعالى لهم، ولغيرهم.

ثم يتدرج البيان الحكيم من الله العزيز الحكيم إلى بيان حالهم يوم القيامة إن استمروا على كفرهم وعنادهم ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾ فيوم القيامة يقال لهم ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ﴾ وذلك تقريعاً وتوبيخاً لهم، فتذوقوا يا أيها الظالمون جزاء ما تلبستم به من الكفر الذي ظلمتم به أنفسكم ورسولكم ومن اقتدى بكم. حيث سيوافيكم عذاب الخلد الذي لا تنفكون عنه أبداً. مع تقريرهم بما كان من كسبهم في الدنيا ﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾ فهو سؤال استفهام، يقررهم بحالهم من الكفر في الدنيا، والذي اكتسبوه بمحض إرادتهم وطواعيتهم، نتيجة الكبر والحسد. فهل جازيناكم بخلاف ما كسبتم، أم جازيناكم بما كسبتم، فما ظلمناكم، ولكنكم ظلمتم أنفسكم، باختياركم الباطل على الحق، والكفر على الإيمان، والكبرياء على التواضع للحق، فأوداكم ذلك في العذاب المهين.

﴿وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوۡ أَنَّ لِكُلِّ نَفۡسٖ ظَلَمَتۡ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لَٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۖ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ وَهُمۡ

لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

يخبر الله تعالى بما سيكون منهم مع النبي صلى الله عليه وسلم في محاوراتهم وتساؤلاتهم ﴿ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ﴾ فيسألونك عن يوم القيامة والبعث والخروج من الأجداث بعد أن تصير الأجساد تراباً، هل هو حقيقة؟ وهذا الاستخبار منهم على جهة الاستهزاء والاستنكار، ولكن بالرغم من ذلك إلا أن الله تعالى يأمر نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يجيبهم على تساؤلهم، بالرغم من أنه على وجه الاستهزاء والاستنكار، مما يفيد علو وسمو أخلاق الإسلام ورتبته ومنهجه، ليعطي درساً في التواضع، وكذلك منهجية التعامل مع المستهزئ، بأن يُحمل كلامه على الحقيقة، فلعله يستحي ويمتنع ﴿ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ﴾ نعم إنه لحق، فإن يوم القيامة حق، والبعث والنشور حق، والحساب والجزاء حق، والجنة والنار حق، بل ويسبق تلك الإجابة القسم بالله تعالى ﴿ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ﴾

ثم يزيد عليهم في الإيضاح بالوعيد الشديد، والقدرة عليهم ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ فلستم بفائتين من ذلك العذاب، بأي وسيلة تتوقعونها، فلن تندفعوا عنه بحيلة، ولا بتكبركم، ولا بكثرتكم، ولا بقوتكم، فخلوصكم من عذاب الله تعالى متعذر ومستحيل. ثم أكد الله تبارك وتعالى ذلك ببيان ما سيحصل فيه من العذاب الشديد، بقوله عَزَّ وجل ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ﴾ فلو أن كل نفس ظلمت نفسها بالكفر، وقد امتلكت ما في الأرض جميعاً لافتدت به، ودفعته مقابل النجاة من عذاب الله تعالى، مما يبين هول ما ستجده من العذاب، ولكن يستحيل ذلك، فلا فدية تُقبل من كافر.

ومن بلاغة البيان أن الله سبحانه وتعالى لم يذكر العذاب، بل ذكر جَلَّ جلاله حال الظالم ذلك الوقت، لِمَا يجده ويراه من العذاب. ثم يصف الله تعالى ويكشف المزيد من حالهم في ذلك الموقف ﴿ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ﴾ فأخفوا الندامة في موطن العذاب، لأن هوله سلب عقولهم، فهالهم ما رأوا، حتى خفيت ندامتهم من هول العذاب، وذكر الإمام الطبري رحمه الله تعالى: أن رؤساء هؤلاء المشركين أخفت عن وضعائهم وسفلتهم، الندامة حين أبصروا عذاب الله قد أحاط بهم، وأيقنوا أنه واقع بهم[1] ﴿ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِۚ

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٢/١٩٢)

﴿ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴾ فقضى الله تعالى بين المؤمنين والكافرين، والرؤساء والأتباع والمتبوعين، وبين الظالمين والمظلومين بالعدل، من غير أن يظلمهم سبحانه وتعالى، وذلك لعدله بهم وبينهم عَزَّ وجل.

ثم يخبر الله تعالى عباده بكمال قدرته، وتقرير ذلك من خلال بيان أربعة حقائق: الحقيقة الأولى ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ فإن لله ربكم سبحانه وتعالى ما في السماوات والأرض، لتفيد كمال الملك، والقدرة، وكمال التصرف، وأنه غالب على أمره، وأنه القاهر لما في السماوات والأرض، فلا أحد ولا شيء يخرج عن قدرته وإرادته وكمال سلطانه، ومنهم العباد وما يتصرفون فيه، مما مكنهم فيه بفضله وتسخيره سبحانه وتعالى.

والحقيقة الثانية: تأكيد أن ما وعد به حق، لا ريب ولا شك فيه ﴿ أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ ﴾ فيقرر سبحانه وتعالى لعباده أن ما وعد به من البعث والنشور، والحساب والجزاء، والجنة والنار، وغير ذلك مما وعد به، فإنه حق كائن بلا ريب ولا شك.

وقد تصدرت الآية الكريمة بحرف التنبيه ﴿ أَلَآ ﴾ فتلاها حرف التأكيد ﴿ إِنَّ ﴾ ثم تكرر ذلك عند بيان أن وعده حق ﴿ أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ ﴾ لما فيه من الإيقاظ والتنبيه لما بعده، لأن ما بعد حرف التنبيه جامع لما سبق بيانه، بكلام بليغ في بيانه، وقوي في معناه ودلالته، وأنه كائن لا محالة. والحقيقة الثالثة: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ وفي هذا تجهيل للمنكرين بما وعد الله تعالى به من البعث والنشور، والحساب والجزاء، والجنة والنار. فأكثر الكفار لا يعلمون صلاحهم ومصلحتهم ليعملوا به، وما فيه فسادهم فيحذروه ويجتنبوه، فقد كانوا يمتنعون ويمنعون أنفسهم عن العلم الذي جاء به المرسلون، فلو أنهم اتبعوا المرسلين لعلموا تأويله. والحقيقة الرابعة: ﴿ هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ ففيه تقرير بأنه عَزَّ وجل هو الذي أنشأ خلقه من العدم، وأنه يميت عباده، ثم يحيهم بعد الموت، فيتحقق الرجوع إليه، فيحاسب ويجازي كلاً بما قدم من خير أو شر، ومن إيمان ومن كفر.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ
٥٧ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ٥٨ قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ
لَكُم مِّن رِّزۡقٖ فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ ٥٩ وَمَا
ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا

يَشۡكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ ﴾

ويستمر البيان القرآني من الله تعالى في تأكيد عظمة القرآن الكريم، وبيان خيره وفضله، فيقول تبارك وتعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ فاستهل الخطاب جلَّ جلاله بنداء عام ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ ليشمل أهل مكة وغيرهم، بل وليشمل جميع الناس على مدار ما استقبل من الأعوام والأمكنة والأزمان، واختلاف الناس أشكالاً وألواناً وأجناساً ما بقيت الدنيا. فيخبر الله تعالى عباده بما تضمنه القرآن من خلال أربعة ركائز وحقائق ونتائج، فالأولى والثانية للناس عموماً، وهي الموعظة والشفاء لما في الصدور. والثالثة والرابعة ثمرة ونتيجة لمن آمن، وهي الهداية والرحمة. قال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى: وهدى ورحمة، أي: يحصل به الهداية والرحمة من الله تعالى، وإنما ذلك للمؤمنين به، الموقنين بما فيه[1] وقال الشيخ السعدي رحمه الله تعالى: فالهدى: أجل الوسائل، والرحمة: أكمل المقاصد والرغائب، ولكن لا يهتدي به، ولا يكون رحمة إلا في حق المؤمنين[2]

فالأولى: أنه موعظة مباشرة من الله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾ ففي القرآن من المواعظ ما يتعظ ويهتدي به الإنسان، لما تضمنه من النصح والتحذير، والحقائق والدلالات، والإرشاد والحجج والبراهين التي تنهى الإنسان عن الكفر والفواحش والمعاصي، وتستحثه وترغبه في الإيمان والطاعة، والتحلي بمكارم الأخلاق. ومن مميزات هذه المواعظ أنها مباشرة من الله تبارك وتعالى ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾ وفي دخول ﴿قَدۡ ﴾ ما يفيد تحقق ذلك وتأكيده.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٤٣٦)

(٢) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٢/٣٢٦)

والثاني: أن القرآن الكريم شفاء لمن استعمله، وتأمله، وتفكر في مواعظه وأحكامه وقوة بيانه، وجزالة ألفاظه التي يتأكد بها أن هذا ليس إلا من عند الله تعالى ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ فثمرته واقعة لا محالة لمن استجاب له، واستعمله، فاتعظ بمواعظه، وذلك بشفاء صدر الإنسان من أدواء الشك والشبهات والشهوات الصادة عن الإيمان، فيعالجها القرآن الكريم، ويقتلعها بإزالتها، وكفى بهذا الأمر آية إعجاز للقرآن الكريم، بأنه من الله العزيز الحكيم.

وشفاء الصدور إنما يكون للعليل بداء الكفر والنفاق والشرك، وبالتالي هو في حق أولئك شفاء لهم من تلك الدواء المانعة من الإيمان، ولا يمنع أن يكون أيضاً شفاء للمؤمن إن حدث طارئ من الشك أو غيره. فهو حصانة له من أثر الوساوس وغيرها. وأما الثالثة التي هي خاصة لمن آمن به، فإنه ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ فإن القرآن العظيم لمن تمسك فهو به هداية نحو طريق النجاة والخير والفلاح في الدنيا والآخرة. والرابعة ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ فهو نعمة للمؤمنين، لما يحصل به لهم من الخير والثواب والتوفيق للمؤمنين، فإذا تحقق للمؤمن الهداية والرحمة حلت وحصلت السعادة والطمأنينة والفلاح والتوفيق والنجاح الموصل للنجاة يوم القيامة، والفوز بالجنة والنجاة من النار.

ثم بين عَزَّ وجل منزلة القرآن الكريم من خلال بيان استحقاق الفرح والسرور به، فإن كان شيء يستحق الفرح والسرور فهو الفرح بهذا القرآن العظيم، فافرحوا به، لما فيه من المواعظ والشفاء والهدى والرحمة ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ فافرحوا بما تفضل الله تعالى به عليكم، ولما فيه من الرحمة لكم بهذا القرآن العظيم، وهذا الدين الحق القويم، وهذا النبي الكريم. فهذا هو الأولى بالفرح مما يجمعون من حطام الدنيا ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾ فإذا كان هناك شيء يستحق الفرح به، فهو هذا الذي جاءهم من الله تعالى، بل ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ فهو خير مما يجمعون من هذه الدنيا، فليس هناك شيء يجمعونه من الدنيا أفضل وخير من هذا القرآن الكريم، وفهمه والعمل به، لما فيه من الهدى والرحمة ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ الموصلة لسعادة الدنيا والآخرة، مما يفيد عظيم تحصيل القرآن الكريم فهماً وعملاً وتعليماً، فهو خير ما يجمعه الإنسان في الدنيا.

ثم لما استوفى سبحانه وتعالى الرد على المكذبين بالقرآن الكريم، والرد على دعوى من قال: أنه مفترى من دون الله تعالى، فأجابهم ورد عليهم سبحانه وتعالى بأوضح الحجج، وأكمل البيان، توجه الخطاب البياني إلى تصرفاتهم الدينية الخاطئة، حيث حَرَّمُوا بعض أرزاق الله تعالى، وحللوا ما حرم الله تعالى، وذلك بالافتراء على الله تعالى من عند أنفسهم، ليتبين أنهم يتصرفون من عند أنفسهم، وبالتالي فإن تكذيبكم بالقرآن هو مثل

تكذيبكم في أحكامكم على أرزاق الله تعالى، فكيف تقبلون غير شرع الله تعالى المملتئ بالأكاذيب والافتراء من غير حجة ولا دليل، وترفضون شريعة الله عَزَّ وجل الظاهرة لكم بالحجة والبرهان والدليل، فقبلتم ما ليس له حجة ولا برهان ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ فبدأ التوجيه الكريم بأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم بما حاججهم الله تعالى به ﴿ قُلْ ﴾ وفي هذا لفت الانتباه والأسماع وشدها إلى توجيهه جَلَّ جلاله، فبدأ بما يفيد التقرير ﴿ أَرَءَيْتُم ﴾ وهو تنبيه وسؤال تقرير وتعجب ﴿ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ ﴾ أخبروني في شأن ما رزقكم الله تعالى من أرزاق أيها المشركون، لتنتفعوا بها، فعدلتم بها في التحريم والتحليل إلى أهواءكم ﴿ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا ﴾ فقررتم في هذه الأرزاق توزيعاً من حيث الحكم، فجعلتم بعضه حلالاً، وبعضه حراماً من عند أنفسكم. كتحريمهم ما كانوا يحرمونه على أنفسهم من حرثهم، فيجعلونها لأوثانهم، وما كانوا يحرمونه من الأنعام، بقطع آذانها، أو شق جلودها، فيحرمها الرجل على نفسه وأهله، بقوله: بُحُر، وصُرُم، ومن البحيرة والسائبة، كما قال الله تعالى عنهم في سورة المائدة ﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٣) ﴾ فهذا بيان أن هذه ليست من شريعة الله تعالى، فلم يحرمها الله عَزَّ وجل، بل هو محض اختلاق واختراع من الذين كفروا، فجعلوه شرعاً لهم. فإن الله عَزَّ وجل ما أوجب ولا سمى ذلك ولا أمر به. فإن هؤلاء المفترين قد جعلوا شيئاً من مواشيهم محرماً، افتراء من عند أنفسهم، فعارضوا ما أنزل الله تعالى.

ثم يوجه الله تعالى لهم سؤالاً تقريراً، غاية في دقة الوصول بالمسؤول إلى الاعتراف والإقرار بالحقيقة، وهو السؤال فيما جعلوا من رزق الله تعالى حلالاً وحراماً ﴿ قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ فحصر الإجابة في أمرين، إما أن الله أذن لكم، فعليكم بإثباته، أو أنكم تفترون على الله الكذب. فإن كان الله تعالى أذن لكم، فما هو دليلكم وحجتكم على ذلك؟ وإن كان ليس عندكم عليه دليل وبرهان فإنكم إذاً تفترون على الله تعالى كذباً وزوراً. فمنهجكم إذاً فيما أنتم فيه من الشرك هو منهج لا يقوم على دليل، فكيف رضيتم به من غير حجة، ولا تؤمنون بما جاءكم من الله تعالى بالحجج والبراهين، فتكذبون القرآن الكريم، وتكفرون بالرسول صلى الله عليه وسلم، الذي تعرفون صدقه ونزاهته ونشأته تمام المعرفة.

وفي قوله تعالى ﴿ قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ﴾ إنكار عليهم، وتقرير لهم بأن الله تعالى لم يأمر بذلك، ثم يقررهم بأنهم قد افتروا على الله تعالى الكذب ﴿ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ فهي محاجة وإعجاز عظيم، تدل

على دقة هذا القرآن الكريم، وأنه قائم على الإثبات والمحاجة الموصلة للحقيقة، التي لا ريب ولا شك فيها، وأنه لا يأمر من غير حجة ولا برهان.

ومن قوة البيان تكرار ﴿قُلۡ﴾ وهو الأمر للنبي صلى الله عليه وسلم بما يخاطبهم به ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا﴾ ثم تكرر الأمر ﴿قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡ﴾ وذلك للمزيد من التأكيد وشد الانتباه لما بعده من توجيه كريم. بل ومن جميل البيان ودقته أن نسب الله تعالى إنزال الرزق إليه سبحانه وتعالى ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ﴾ قال الزجاج رحمه الله تعالى عن ﴿أَنزَلَ﴾ بمعنى: خلق، فيجوز أن يعبر عن الخلق بالإنزال، لأن الذي في الأرض من الرزق إنما هو بما ينزل من السماء من المطر[1] لأن الثمار والأشجار والأنعام قائمة على ما يُنزله الله تعالى من المطر، الذي هو سبب الحياة، ودوام الرزق.

ثم ينتقل البيان الرباني إلى عقوبة من يكذب عليه ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ فما ظن هؤلاء الذين يُكَذِّبُون بحجج الله تعالى عن مصير حالهم؟ وماذا يعتقدون لأنفسهم؟ أيحسبون أن الله تعالى لا يؤاخذهم بافترائهم عليه عَزَّ وجل؟ فما ظنهم بما سيفعل الله تعالى بهم يوم القيامة، جزاء كذبهم هذا؟ فهو سؤال استنكار على تصرفهم، مع تقرير معاقبته لهم سبحانه وتعالى، وهو سؤال يستثير التفكير نحو ما فعلوه، ونحو المآل والجزاء، ليفيد الوعظ والترهيب والتهديد إن لم يتوبوا إلى الله تعالى، ويطيعوه، ويتبعوا رسوله صلى الله عليه وسلم.

ثم يبين الله تبارك وتعالى كرمه ورحمته بعباده ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ فإن من فضل الله عَزَّ وجل على الناس أنه لا يستعجل لهم العقوبة، فيمهلهم، لعلهم يرجعون للحق، ويتوبون ويستغفرون، وإلا كيف سيكون حالهم لو أن الله تعالى عجل لهم العقوبة، فإن هذا يستحق الشكر من الناس، لعدم معاجلة الله تعالى لهم بالعقوبة ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ فأكثر الناس لا يشكرون الله تعالى على ذلك، وكان الأولى الاستجابة لله تعالى وشكره على ما بين لهم من الحق. مما يفيد أهمية الشكر، وكثرة الحمد لله تعالى على هدايته وتوفيقه.

---

(١) القرطبي، لجامع لأحكام القرآن (٨/٢٢٦-٢٢٧)

ثم يخبر الله تعالى بكمال علمه وإحاطته بما يبذله رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنون من أعمال في سبيل هذا الدين، بما يفيد الإشادة بها، والعناية بهم، والوعد بالإثابة العظيمة عليها ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ فيا أيها النبي ما تكون في أمر وعمل من الأعمال، وكذلك ما تتلوا في ذلك الشأن من قرآن، ولا تعملون أيها المؤمنون من عمل إلا كنا نشهد عليكم فيما قمتم به، فلا يخفى علينا منه شيء. مما يفيد أن ربكم يثيبكم على جميع جهودكم من الطاعة والامتثال.

ومن عظيم البيان تفخيم عمل النبي صلى الله عليه وتبجيله ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ ﴾ لأن لفظة الشأن تفيد الأمر العظيم، قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: الشأن الخطب، والأمر، وجمعه شؤون(١) والشأن الحال، والأمر الذي يتفق ويصلح، ولا يقال إلا فيما يعظم من الأحوال والأمور(٢) وشؤون النبي صلى الله عليه وسلم عظيمة كلها، وكذلك رفعة مقام القرآن الكريم ﴿ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ ﴾ وما تتلوا من القرآن في هذا الشأن العظيم، قال الفراء والزجاج رحمهما الله تعالى: الهاء في ﴿ مِنْهُ ﴾ تعود على الشأن، أي تحدث شأناً فيُتلى من أجله القرآن، فيعلم كيف حكمه، أو ينزل فيه قرآن فيُتلى، وقال الطبري: ﴿ مِنْهُ ﴾ أي: من كتاب الله تعالى ﴿ مِن قُرْءَانٍ ﴾ أعاده تفخيماً(٣) وهذا كله من غزارة البيان، ودقته وإعجازه في دلالة ألفاظه.

ثم جمع تبارك وتعالى المؤمنين مع نبيهم صلى الله عليه وسلم فيما يعملونه من أعمال ﴿ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ فما تعملون من عمل صغير أو كبير إلا نعلمه ونحيط به حال تشرعون وتندفعون فيه ﴿ إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ مما يفيد دقة معية الله تعالى، وفي هذا تشريف لأعمال الخير، وكذلك يفيد أهمية الانتباه والحرص والحذر، فإن الله تعالى رقيب أعمالكم، بل ومن دقة علمه سبحانه وتعالى أنه لا يغيب عنه مثقال ذرة ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ

(١) المرجع السابق (٨/٢٢٧)
(٢) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص (٢٧١)
(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٨/٢٢٧)

﴿أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ﴾ فلا يغيب ولا يبعد عن علم الله تعالى قدر ذرة في الأرض أو في السماء، ولا حتى أصغر من ذلك، ولا أكبر إلا مكتوب ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ﴾ أي: في كتاب واضح ومُبَيِّنٌ لكل صغيرة وكبيرة، قال ابن عباس رضي الله عنهما: هو اللوح المحفوظ[١] وهذا من غاية الدقة، بل ومن سابق علمه بما سيكون من العبد قبل أن يكون، فتم حفظه في اللوح المحفوظ. مما يستلزم أن يعبد العبد ربه كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فإنه يراك، كما جاء في قوله صلى الله عليه وسلم عن الإحسان (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)[٢]

ثم ينتقل السياق الكريم إلى بيان ما أعده الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين من كريم اللطف والكرم ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ فهذه بشارة للرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين كافة، بأن أولياء الله تعالى الذين حققوا الإيمان والتقوى بأداء فرائضه واجتناب معصيته، فإنهم أنصاره، لأنهم يتولونه سبحانه وتعالى بالطاعة والامتثال، فهم محفوفون مكفولون بالأمن التام من عذاب الله تعالى، لأنه رضي عنهم تبارك وتعالى، فأمنهم من عقابه وعذابه، وكذلك فإنه لا يصيبهم ما يحزنهم على ما فاتهم من الدنيا، وقد سماهم الله تعالى بأوليائه، لأن الولي هو النصير، وقد وصف الله تبارك وتعالى حقيقتهم، بأنهم ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ فحققوا الإيمان الكامل، وصَدَّقوا إيمانهم بتقواهم لله تعالى، بالامتثال في الطاعة لله عَزَّ وجل، واجتناب ما نهى عنه وزجر. وهؤلاء لهم من الله تعالى عناية خاصة ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ فلهم البشرى بالخير من الله تعالى في الدنيا، وكذلك في الآخرة، فيجدون البشارة من الله تعالى في الحياة الدنيا بالرؤيا الصالحة التي يرونها، أو تُرى لهم من غيرهم، والتي تحمل لهم في دلالاتها العاقبة الحسنة في آخرتهم وفي دنياهم.

وقد جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (لم يبق من النبوة إلا المبشرات) قالوا: وما المبشرات؟ قال (الرؤيا الصالحة)[٣] وكذلك بشارة الملائكة لهم عند الموت، وكذلك ما بشر الله تعالى به المؤمنين في كتابه وفي سنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم من العاقبة الحسنة للمؤمنين الطائعين، بالجنة وجزيل ثوابه ومغفرته ورحمته، ومعيته للصابرين والمحسنين والخاشعين والصالحين ولغيرها من الصفات الصالحة، كما قال تعالى في سورة فصلت ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣٨/٤)
(٢) البخاري، الجامع الصحيح (٣٣/١) برقم (٥٠)
(٣) البخاري، الجامع الصحيح (٢٩٧/٤) برقم (٦٩٩٠)

ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ وفي الآخرة يُبَشَّرُون بدخول الجنة.

ثم يؤكد الله تعالى ذلك بقوله عَزَّ وجل ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ ثبات ما وعدكم به ربكم. فلا تغيير لوعده وقوله جَلَّ في علاه، فهو ضمان منه تبارك وتعالى لأوليائه من أن لا يلحقهم خوف من أمر متوقع، أو حزن على أمر فاتهم تحصيله، وانتهى عنهم ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ فهذه البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة هي الفوز العظيم بالجنة والنجاة من النار.

ومن جميل البيان الرباني وحصافته ودقته أنه بدأ هذا البيان بأداة التنبيه ﴿أَلَآ﴾ لإظهار أهمية شأنه، وشد الانتباه لما بعد أداة التنبيه من البيان. ثم أكد القول بأداة التأكيد ﴿إِنَّ﴾ كما أن من جميل التكريم أن نسبهم الله تعالى إليه ﴿أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ والتي تعبر عن منزلتهم ومكانتهم منه تبارك وتعالى، وهو غني عنهم، مما يفيد رحمة الله تعالى ولطفه، وأنه من رحمته فإنه يحب أهل التقوى من أمته. ومن جميل البيان الممتلئ بالرحمة واللطف أن قال عنهم ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فلا تتوقعوا حصول مكروه يقع بكم، ولا تنشغلوا وتفكروا فيما يفوتكم من نصيب الدنيا فتحزنوا عليه، أو مما تخافون عليه من ضياع الذرية أو المال أو الأهل أو غير ذلك، فلن تنشغلوا بالحزن على ذلك. وفي هذا ما يغرس في المؤمن حياة الطمأنينة والتوكل على الله تعالى، والاجتهاد في طاعته عَزَّ وجل، وأن يبذل الغالي والنفيس أمام هذه البُشْرَى التي تمثل الفوز العظيم من الله تعالى، فهو فوز لا يُعَادل بأي فوز.

بل ومن دقة البيان أن نفى جنس الخوف بأكمله، لأن النفي دخل على نكرة ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ وأيضاً هي بشارة لأهل الميت في ميتهم، فيما يعرفونه من حال طاعته، بأنه لا خوف على ميتهم إن كان من المؤمنين المتقين، فلا تخافوا عليه من شر قادم. ونفى كذلك الحزن الذي تنكسر فيه النفس من الحسرة والندامة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ والحزن متعلق بما مضى وترك وفقد. وأما الخوف فهو سابق للمتوقع حصوله، فالخوف يكون على شيء متوقع قدومه وحدوثه، وأما الحزن فيكون على شيء وقع وانتهى. وجاء نفي الحزن بصيغة الفعل المضارع ﴿يَحْزَنُونَ﴾ ليفيد الحال والمستقبل، فإنه أمر عظيم، ومثوبة عظيمة، بأسلوب معجز في بيانه وبلاغة تراكيب ألفاظه. فسبحان الله العظيم الكريم، الذي أعجز ببيانه عباده أن يأتوا بمثله. فاللهم اجعلنا من أوليائك الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

بعد بيان الله تعالى للمؤمنين بما تقر به أعينهم ونفوسهم فيما يستقبلونه، بأنه لا خوف عليه ولا هم يحزنون، يوجه تبارك وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم، والمؤمنون تبع له صلى الله عليه وسلم بأن لا يهتموا ويكترثوا وينشغلوا بأسباب الحزن، جراء ما يجدونه من أعدائهم ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ﴾ فلا يحزنك تكذيبهم، وإنكارهم، وما يقولون من أقوال سيئة، وما يتظاهرون به من العداوة والأذى. وفي هذا نهي عن الاشتغال والانشغال بأسباب الحزن من أقوال الأعداء، التي من شدتها أنها تولد الحزن وتسببه، وتثيره في القلب، فلا تلتفت إليها، فإن الحقيقة هي: أن العزة لله جميعاً.

ومن دقة البيان أن جاء لفظ ﴿ قَوْلُهُمْ ﴾ عاماً، ليشمل أنوع أقوالهم، ودرجات حدتها، وتنوع أساليبها، فلا تجعل أقوالهم طريقاً لدخول الحزن إليك، مهما كانت. بما يفيد المؤمن في تعامله مع أقوال أعداء الله تعالى خاصة، وعموم حياته عامة، بأن لا يجعل أقوال أعدائه تستثير أسباب الحزن، ولا يتأثر بها، ولا يلتفت إليها، فلا ينشغل بأقوال مبغضيه وأعدائه، فيحزن من أقوال غيره عليه، وخاصة أعداء الله تعالى.

ثم ينتقل البيان الكريم إلى لفت الذهن لشأن عظيم، إذ في معرفته ما يستوجب عدم الالتفات إلى أقوالهم ﴿ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ فقرر عَزَّ وجل أن العزة له كاملة وجميعاً، وبالتالي فإنهم مسلوبي العزة. مما يترتب على ذلك ألا تلتفت لكلامهم، طالما أن العزة لله تعالى، والتي ينبثق من مضمونها أن الله سبحانه وتعالى مُعِز دينه ورسوله والمؤمنين، وطالما أن العزة مُلْكٌ لله تعالى، فإذاً لا تحزن من أقوالهم. وهذا يفيد أن أقوال الأعداء مصدر حزن للنفس، وأن للحزن تأثير على العزيمة والإرادة والتفكير، فيؤدي إلى إضعاف النفس،

فيحدث فيها قدراً من اليأس، والتفكير السلبي، الذي يحول دون المضي قدماً نحو تحقيق الأهداف، فيجب على المؤمن ألا يجعل أقوال الأعداء أسباباً لحزنه، بل يمضي قدماً في تحقيق الأهداف، دون اكتراث أو انشغال بها.

وقد حصر سبحانه وتعالى العزة له وحده لا شريك له، فهو الذي يعز من يشاء، ويذل من يشاء ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ فالغلبة والنصر جميعاً لله تعالى، وإذا كان الأمر كذلك، فإن الله تعالى ناصر رسوله صلى الله عليه وسلم، ودينه والمؤمنين، لأنه لا عزة للأعداء طالما أن العزة لله جميعاً. بل أكد الله ذلك بحرف التوكيد ﴿إِنَّ﴾ ولم يحصر العزة في جانب محدد، بل وصفها بالعموم والشمول ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ وأكدها بقوله تعالى ﴿جَمِيعًا﴾ فالعزة لله تعالى من كل وجه وفي كل مقام وأمر، وبالتالي نفى حصول الكافرين على أي نوع من العزة التي يتعززون بها على رسوله صلى الله عليه وسلم.

ثم يذكر الله تعالى لهذا المقام ما يناسب من أسمائه الحسنى وصفاته العليا الكريمة. فقال جَلَّ جلاله ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ فربكم عَزَّ وجل هو السميع لكل شيء، والعليم الذي لا يفوته شيء. فهو السميع لأقوال عباده، والعليم بأحوالهم، فإنه يسمع ما يقولون، ويعلم بما في ضمائرهم، وما يسرون به، وما يخططون ويرتبون له، وفي هذا ما يُوجب الثقة والعزيمة القوية، ويعزز الطمع في أن يتولى الله تعالى أمرهم. كما أن في ذلك إرشاد لنبيه صلى الله عليه وسلم للمؤمنين نحو ما يعزز في نفوسهم معية الله تعالى، وإذلاله للكافرين. فإذا كان العزيز الذي حصر العزة له وحده لا شريك له تبارك وتعالى، وأنه يسمعهم ويعلم حالهم وتدبيرهم، وما تكنه ضمائرهم، فإن هذا يقوي النفوس المؤمنة ويعزز ثقتها بالنصر والتمكين لعظيم قدرة الله تعالى. مما يبين ويفيد أهمية معرفة أسماء الله تعالى الحسنى، وصفاته الكريمة العظيمة، ودلالاتها، فإن في العلم بها قوة للمؤمن.

ثم يؤكد الله تبارك وتعالى عزته وقوته بقوله جَلَّ جلاله ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ فإن ربكم سبحانه وتعالى هو المالك للسماوات والأرض، وجميع ما فيهما، مما يدل ويثبت قوته وقدرته وعزته عَزَّ وجل، ثم يبين خذلان أعداء الدين، من خلال الكشف عَمَّن تولوه وانتصروا به، مما لا يسمع ولا يعلم من الأصنام ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ﴾ فإن هؤلاء المشركين الذين يتوسلون ويطلبون تلك المعبودات التي يسمونها شركاء لله تعالى، وهي ليست شركاء له عَزَّ في علاه، فإن الخذلان لهم. لأن لربكم ملك السماوات والأرض وما فيهن، فمن له الملك كله، فإنه ينتفي الشريك معه. وأن من ضعف أولئك أنهم يعبدون من دون الله تعالى أصناماً، لا تملك ضراً ولا نفعاً، بينما أنتم تعبدون ربكم سبحانه وتعالى، ولا تشركون به شيئاً، والذي له ملك السماوات والأرض.

ثم يتأكد ضلال المشركين باتباعهم الظنون ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾ فإنهم يتبعون ظنونهم وتخرصاتهم، من غير حقيقة ولا دليل، بل يتبعون الكذب والوهم. ومن لطف وجميل البيان ودقته وقوته أن الله تبارك وتعالى أبان قواعد تفكيرهم، بأنها قائمة على أمرين واهيين، الأول: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ فلا يتبعون أمراً يقينياً، بل يتبعون ظنونهم، والظن لا يغني من الحق شيئاً. والثاني: ﴿وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾ وهو القول بالتخمين، بينما المؤمنون يتبعون رسولاً من الله تعالى، على حقيقة من أمرهم، وبينة وحجة وبرهان وعلم. فشتان بين منهجكم وسبيلكم أيها المؤمنون وبين منهج الكافرين وسبيلهم. مما يفيد أهمية المقارنة في التوضيح والتعليم، وغرس اليقين.

وكذلك من دقة منهجية البيان القرآني أن الله تبارك وتعالى افتتح كلامه العظيم بأداة التنبيه ﴿أَلَآ﴾ لشد الذهن نحو ما بعده من بلاغ، ولبيان أهمية العلم بهذه الحقائق على الفكر والتفكير والاعتقاد، وعلى الثقة، وعلى حقائق الأمور. بل وأعقبها بنون التوكيد ﴿أَلَآ إِنَّ﴾ الذي يؤكد به كمال الملك والتصرف في ملكه كيف يشاء، وهذا من بلاغة البيان في الخطاب الرباني سبحانه وتعالى. كما يفيد هذا من حيث الأساليب أهمية التنبيه عند الكلام، بما يشد انتباه المتلقي لما بعده من التوجيه والبيان.

ثم يستمر التوجيه من الله تعالى في بيان عظمته وقدرته، وعظيم سلطانه، بما يفيد بطلان ظنهم وتخرصهم، وتأكيد إيمان المؤمنين ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾ فقد لفت جَلَّ جلاله انتباه المتلقي إلى كمال قدرته وإبداع خلقه، وتصريف أمور ملكه بما يقتضي حكمته، فإنه جعل لكم الليل ظلاماً، من أجل أن تسكنوا فيه، وتُرِيحوا أبدانكم، وتستجمعوا قواكم بمنامكم الذي منحكم إياه تفضلاً ورحمة منه سبحانه وتعالى، بينما جعل لكم النهار نوراً، لتبصروا فيه حاجاتكم، فيكون النهار مهيأً لكدحكم، وطلبكم الرزق، وتنقلكم، وذهابكم وإيابكم. وفي هذا استثارة لذهن المتلقي، عمن دبر هذا الكون على قدر حاجة العباد من غير سؤال ولا طلب ولا معرفة منهم؟ أليس هذه آيات وعبر ودروس من آيات الله تبارك وتعالى؟ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾ إن هذه آيات لقوم يسمعون، ويعون ما يسمعون. فإن هذه دلائل وآيات عظيمة لمن استمع كلام الله تعالى، وتأمل ما لفت الانتباه إليه عَزَّ وجل.

وقد جاء النص الكريم بصيغة الإثبات والتوكيد ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ بعد بيانه لتلك الآيات الباهرات، وتمايزها فيما بينها، وتوافقها مع حاجة هذا الإنسان، فمن دبر هذا الكون بهذا التدبير العظيم؟ أليس

هو ربكم القادر على كل شيء؟ مما يستوجب على الإنسان أن يتأمل آيات الله تعالى الكونية، فإنها مصدر للإيمان، وتعزيز له، كما يؤكد ذلك ويبين أن القرآن الكريم يستثير الانتباه إلى دقائق ما بث سبحانه وتعالى في الكون من آياته العظيمة، وإلى الحكمة منها، ومن اختلاف تنوعها، وعلاقتها بحاجة الإنسان ومصالحه، فإن الذي رَتَّبَ ونَظَّمَ هذا الكون بهذا التنظيم العجيب العظيم هو الله ربكم سبحانه وتعالى، فتبارك الله أحسن الخالقين، فإنه سبحانه وتعالى قد خلق فأبدع وأبهر بما خلق. مما يُوجب عبادته وحده لا شريك له، وتوحيده، وإفراده بالعبادة، وطاعته عَزَّ وجل وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، والخوف منه، ورجاء ما عنده.

ثم يُفَنِّدُ اللهُ تعالى بالبيان والإيضاح المزيد عن قوة كفر الكافرين، وافترائهم على الله تعالى الكذب، بما يتوافق مع قواعد منهجهم الباطل، القائم على الظن والتخرص والوهم ﴿ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴾ قال المشركون إن الله تعالى اتخذ لنفسه الولد، فنسبوا إلى الله تعالى البنات، فقالوا: الملائكة بنات الله. فيتوافقون مع اليهود في قولهم عزير ابن الله، والنصارى في قولهم المسيح ابن الله. وهذا القول منهم قياساً على المخلوق، الذي يحتاج الولد لعونه ومساعدته. فإن من اتخذ شيئاً من المخلوقين فإنما يتخذه ليقوم بأمر، وذلك للحاجة إليه، فقاسوا الخالق على المخلوق، فَنَزَّه اللهُ تعالى نفسه عن ذلك، بما يُبطل افتراءهم، وذلك بحجج قائمة على كمال سلطانه وغناه عن خلقه عَزَّ في علاه، فالحجة الأولى: قوله عَزَّ وجل ﴿ سُبْحَـٰنَهُۥ ﴾ وهذا تنزيه عام، بعلو شأنه عن كل نقص يستوجب أن يكون له من يعينه. وهو تنزيه عام عن كل نقص وعيب، جَلَّ جلاله، فالولد للحاجة، وأيضاً ليرثه من بعد موت الأصل، بينما تبارك وتعالى عزيز عن ذلك، فهو الحي الذي لا يموت، والغني الذي لا حاجة له بالولد، فهو الحي الباقي الأزلي الذي ليس قبله شيء، ولا بعده شيء، بل هو القاهر فوق عباده.

والحجة الثانية: قوله عَزَّ وجل ﴿ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ﴾ فهو متصف بكمال الغنى عن كل شيء، ومنها الزوجة والولد، وغير ذلك مما يحتاجه المخلوق، لأن الولد يتخذه من يحتاج إليه، وأما الله عَزَّ وجل فهو المتفرد بغناه المطلق، والولد منافي لكمال الغنى المطلق، فسبحان الله وتعالى عما يقولون علواً كبيراً.

ثم يتدرج بهم في الحجة والبيان إلى المحسوس المشاهد، الدال على عظيم سلطانه، وهي الحجة الثالثة: ﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ فالذي يملك السماوات والأرض وما فيهن، قاهر لها بأمره وسلطانه، فلا يحتاج إلى معين، والكل تحت سطوته وسلطانه وقهره. وهذه استدلالات بما يشاهدون من المحسوسات، وبما يرونه من كمال التدبير في هذا الملك العظيم، الذي تنتفي معه الحاجة لغيره، وهو المالك القاهر فوق عباده سبحانه وتعالى.

ثم يتدرج البيان الاستدلالي إلى إثبات عجزهم وخلوا مذهبهم من الدليل والبرهان على افترائهم لله الولد، وهي الحجة الرابعة ﴿ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍ بِهَٰذَآ ﴾ فهل عندكم حجة وبرهان على افترائكم لله تعالى الولد؟ وتعتبر هذه الحجة متضمنة للنتيجة، وهي النتيجة الأولى لهذه المحاجة، فمن لا يملك دليلاً على أقواله فإن النتيجة أنه كاذب مفتري. فبعد أن أقام الحجة عليهم، أكد كذبهم، بأن ليس عندهم برهان وحجة على افترائهم الكذب عليه سبحانه وتعالى، فالسلطان هو الحجة، وليس عندهم سلطان بذلك، فهم فاقدون له. مما يؤكد وصفهم السابق في قوله تعالى ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ فيتبعون ظنونهم وتخرصهم، من غير برهان ودليل.

ثم يُرتب تبارك وتعالى على عجزهم عن الدليل والبرهان نتيجة أخرى، فإن لم يكن لديكم دليل على افترائكم، فإذاً أنتم تفترون على الله تعالى الكذب ﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ فأنتم تصفون الله تعالى بغير علم، فتتقولون عليه عَزَّ وجل بالظنون والتخرص. وفي هذا تشنيع وتوبيخ لفكرهم وعقولهم المنحدرة إلى الظنون والتخرص، من غير علم ولا برهان. فعجزكم عن البرهان والحجة تُثبت أنكم تقولون على ربكم الكذب ﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ وورد كلام الله تعالى لهم بصيغة السؤال، الذي يقرر كذبهم، ويستنكر قولهم على ربهم سبحانه وتعالى بغير علم، وبما يفيد التوبيخ لهم، والذم لمنهجهم وأخلاقهم، وسوء تفكيرهم.

ثم يتدرج بهم السياق القرآني الكريم إلى بيان عقاب من يفتري على الله تعالى الكذب، فيقول جَلَّ جلاله ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ فقل لهم يا أيها النبي إنكم مفترون فيما تقولون على ربكم، وبما قامت به الحجة عليكم، وبما حكم الله تعالى بحجته التي أقامها عليكم، وأثبت بها جهلكم المبني على الظنون والتخرص. فإنه حكم على هؤلاء المفترين أنهم لا يفوزون بمطلب من المطالب، لأنهم كاذبون، فلا يتحقق لهم مطلب ولا رجاء ولا فلاح ولا نجاة ولا انتصار.

ومن بديع السياق وغزارة ألفاظه أن جاء التوجيه بالحكم على عدم فلاح من كَذَبَ على الله تعالى، من خلال الأمر لرسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم النتيجة والحكم ﴿ قُلْ ﴾ وفي هذا ما يفيد رفعة النبي صلى الله عليه وسلم، بأنه المأمور من الله تعالى أن يبلغ لهم حكمه عَزَّ وجل فيهم. وكذلك ورد الحكم عاماً، ليشملهم، ويشمل كل من يفتري على الله تعالى الكذب. وكذلك من قوة البيان، أنه تم تأكيد الافتراء بالتعقيب عليه بلفظة الكذب ﴿ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ﴾ فالافتراء هو اختراع الكذب.

ثم يخبر الله تعالى عن حال من يتحصل بهذا الافتراء على بعض المصالح الدنيوية. فقال عَزَّ وجل ﴿ مَتَٰعٌ فِي ٱلدُّنۡيَا ﴾ فإن ما تَحَصَّل عليه المفترون الكذب هو متاع محصور على الدنيا فقط، فسماه متاع الدنيا، تهويناً وتحقيراً له، وبياناً لقصره، وعظيم أثره على الآخرة. فقد يتحصلون بذلك على بعض المنافع، ولكن مهما كبرت فهي قليلة أمام ما يفوتهم من خير ونعيم الآخرة، وأمام ما سيجدونه من العذاب المهين. ليدل ذلك على صغر وقلة وضآلة منافع الدنيا، مهما كبرت وتعاظمت في نفس صاحبها، فإنها متاع قليل.

وكذلك جاء لفظ ﴿ مَتَٰعٌ ﴾ نكرة، ليفيد القلة، كما أن في ربطه بالدنيا، تدليل على زواله، وزوال صاحبه، لأن من أقوى صفات الدنيا: الزوال. فقد يحصل المفترون به على التباهي أمام أتباعهم، بأنهم يعرفون ويعلمون ما لا يعلمه غيرهم، بما افتروا من الكذب، أو بغير ذلك من متاع الدنيا. وفي هذا تحذير لهم، وبيان لواقع ما وقعوا فيه، لعلهم ينتهون ويتوبون. كما يفيد هذا أن يحذر المؤمن من أن يقول على الله تعالى قولاً كذباً، من أجل تحصيل منفعة وحظوة دنيوية.

ثم يقول تبارك وتعالى محذراً لهم ﴿ ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ﴾ فإن رجوعكم ومآلكم لله تعالى، وعندها يكون الحساب والعقاب على متاع قد زال وانتهى ﴿ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ﴾ ثم بعد رجوعهم يوم القيامة يذيقهم الله تعالى عذاب جهنم، بسبب افترائهم وكفرهم بالله تعالى، وتكذيبهم للرسول صلى الله عليه وسلم، وجحودهم للآيات والبراهين والحجج. فإن عذاب المفترين عند الله عَزَّ وجل شديد الأثر، لقاء كفرهم بما جاهم من عند الله تعالى، وتماديهم في صده، وبهتانهم وافترائهم على الله الكذب. وقد جاء النص الكريم عاماً، ليستوعب جميع الكافرين على اختلاف نوع كفرهم، وكذلك أفاد أن المشركين من الكافرين، لدخولهم في نص الحكم والعقوبة. وجاء لفظ التعذيب بالذوق ﴿ نُذِيقُهُمُ ﴾ لأن الذوق أدق حواس الإنسان في الإحساس، ليتأكد به أن عذابهم قوي الأثر والإحساس به، كما يحس الإنسان المطعوم والمشروب. وفي تعليل عذابهم بما كان منهم من الكفر، دليل على أنهم هم الذين جنوا على أنفسهم، وحققوا لها الظلم، وأن الله تعالى ليس بظلام للعبيد.

﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةً ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ

كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾

بعد إقامة الحجج والبراهين على الذين افتروا على الله الكذب، وبيان بطلان ما هم عليه من الشرك، ينتقل السياق القرآني الكريم إلى تذكيرهم بما حصل للأمم التي كذبت الرسل، وكيف أهلكهم الله تعالى، وأَنْجى أنبياءه المرسلين. وبدأ سبحانه وتعالى بقصة أول أنبيائه نوح عليه الصلاة والسلام، لتكون عظة وبياناً لهم، وأيضاً في ذكر تفاصيلها إثبات لنبوته صلى الله عليه وسلم، إذ يخبرهم بأخبار وأحوال أمم سابقة، وهو أمي لم يتلق عن أحدٍ شيئاً، وكذلك فيه إيناس للنبي صلى الله عليه وسلم، وتذكير للمؤمنين بما كان عليه الأنبياء ومن آمن معهم، وما وجدوه من أقوامهم، وكيف نصر الله الحق، وهزم الباطل، فأهلك الكافرين، ونجى الله تعالى رُسُلَه ومن آمن معه.

فقال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ ﴾ فاقرأ عليهم يا أيها النبي شأن وخبر نوح عليه السلام مع قومه، وسماه تبارك وتعالى ﴿ نَبَأَ ﴾ ليدل على الخبر الذي له شأن عظيم ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾ فاذكر لهم حين قال نوح عليه الصلاة والسلام لقومه ﴿ يَـٰقَوْمِ ﴾ فكلمهم بلطف الكلام، بأن نسب نفسه إليهم، بأنه منهم، بما يفيد الحرص عليهم، ومحبة الخير لهم، لأنه جزء منهم، مما يبين أهمية اللطف في الوعظ.

ونتيجة لكثرة دعوته لهم، ووعظهم بآيات الله تعالى وحججه، وامتناعهم وتمنعهم وصدهم له، يقول لهم ﴿ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ﴾ فإن شق وعظم عليكم طول مكثي بينكم، ووعظي لكم بحجج الله تعالى، وامتناعكم عن الاستجابة والطاعة والانقياد لله تعالى، فإنني لا أقابلكم إلا بالتوكل على الله عَزَّ وجل ﴿ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ فإنني قد عولت واعتصمت وفوضت أمري إلى الله تعالى، فإنه حسبي ووكيلي، وأما أنتم ﴿ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ﴾ فأحكِمُوا أمركم، واعزموا عليه، والعزم يكون بعد التفكير والتردد، فأجمعوا أمركم المتفرق، وكذلك شُرَكَاءَكم. بما يُنْبِئ عن قوة توكله على الله تعالى، وأن إحكامكم لأمركم، وجمعكم لشركائكم معكم لن يضرني بشيء، فإنكم أنتم المتضررون، وهذا من قوة ثقة نوح عليه السلام بربه تبارك وتعالى، ورباطة جأشه. ليكون في ذلك تشجيع للنبي صلى الله عليه وسلم، ودرس وتشجيع للمؤمنين

بالاقتداء بنوح عليه الصلاة والسلام. وفي دلالة ﴿ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ﴾ ما يفيد أنه لا يأبه بهم، وأنه واثق من هلاكهم ونجاته، ومن آمن معه.

ثم زاد عليهم في تدرجه معهم إلى القول ﴿ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ﴾ فلا يكن أمركم مكتوماً، وكذلك يحمل معنى: لا يكن أمركم عليكم كربة، وفي هذا مبالغة في تحديهم، وبث الرعب في قلوبهم، وبيان لقوة اعتماده على الله تعالى، وثقته في ربه جَلَّ جلاله، وبأنه ناصره، ومهلك القوم الكافرين، ثم يتدرج معهم إلى انتزاع ترددهم ﴿ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾ فاقضوا إليَّ بما في أنفسكم، وما تريدون فعله من مكروه، وما تتوعدون به من وعود الإضرار بي. ثم يؤكد ذلك بقوله عليه الصلاة والسلام ﴿ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾ أي: ولا تنتظروا وتتريثوا عن عزمكم، وما قضيتم به من إرادة الشر. وفي هذا ما يبين شجاعة وقوة توكل نوح عليه السلام على ربه جَلَّ جلاله، وثقته في نصر الله تعالى له، وهزيمة الكافرين. وكذلك فيه ترهيب وتخويف لقومه، ولكن غلب على قومه الاستكبار. وفي هذا موعظة لقريش وغيرها. وفيه تقديم المنهجية العملية للأمة في التوكل والثقة في الله تعالى. اللهم اجعلنا ممن توكل عليك حق التوكل فكفيته. وكذلك في هذا البيان مناداة لقريش وغيرها، من أن أمر وحال محمد صلى الله عليه وسلم هو كحال نوح عليه الصلاة والسلام، فلا تعتقدوا أنه سينهزم، وتنتصرون عليه، بل إن حالكم هو كحال قوم نوح، فاعتبروا بما حل بهم.

ثم أخبر الله تعالى بأمر نوح عليه الصلاة والسلام، في بيانه لقومه، أن ليس له طمع في أموالهم، ولا ممتلكاتهم، وكذلك هو شأن محمد صلى الله عليه وسلم، ليس له طمع في ذلك ﴿ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍ ﴾ فإن توليتم وأعرضتم، فإنه لم يكن المانع أنني طلبت منكم أجراً وثمناً على قبول دعوتي بلزوم طاعة الله تعالى والاستجابة له عَزَّ وجل، حتى تتعللون بأن لي أطماعاً دنيوية، فلم يكن ثمت أجر مطلوب منكم أن تدفعوه لتتولوا بسببه. مما يفيد أن جميع موانع الطاعة والاتباع قد انتفت عنكم، فما امتناعكم إلا عن كبرياء وجحود للحق الواضح.

ثم يُعَقِّب عليهم بقوله تعالى عنه ﴿ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ﴾ فإن ثوابي وأجري أطلبه وأرجوه من الله تعالى. وفي هذا تأكيد وبيان بأسلوب الحصر، أن الأجر والعوض والمثوبة من الله تعالى وحده لا شريك له، مما يفيد الإخلاص لله تعالى ﴿ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ فأنا مأمور من الله تعالى أن أكون من المسلمين. أي: مستسلماً لربي جَلَّ جلاله. فإن كفرتم وتوليتم عن طاعة الله تعالى فلن أعصيه أبدا، ليقطع عليهم التفكير برجوع نوح إلى مذهبهم الكفري، فلا يكن تفكيركم إلا في الطاعة أو أن تمضوا فيما تتوعدون به. ومن جليل الفوائد أن دين جميع الأنبياء هو الإسلام، الذي هو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة،

كما قال نوح عليه السلام ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ لأنه مبني على الاستسلام لله تعالى، بكمال الطاعة.

ثم يخبر الله تعالى بالنتيجة الواعظة، التي تُرغب المؤمن في مزيد الطاعة، وترهب الكافر من كفره وشركه ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ فلم يؤمنوا، وأصروا على كفرهم ﴿ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ﴾ فنجى الله تعالى نوحاً عليه الصلاة والسلام ومن آمن معه في السفينة التي أقلتهم، ونجاهم الله تعالى بها من الغرق الذي أغرق الله تعالى به الكافرين. والله تبارك وتعالى قادر على نجاتهم من غير سفينة، ولكن ليعلم المؤمن أهمية الأسباب، والأخذ بالسنن التي سنها الله تعالى لكونه العظيم ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ ﴾ فجعلهم الله تعالى خلفاء يسكنون الأرض التي تركها وخَلَّفَها الهالكين خلفهم بعد أن أغرقهم الله تعالى. وكذلك تفيد التعاقب، بأن يتعاقب الناجون في السفينة، فتخلفهم ذريتهم من بعدهم، وهكذا يخلف بعضهم بعضا.

ثم قال تعالى ﴿ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ فأهلك الله تعالى الذين كفروا، بتكذيبهم آيات الله تعالى وحججه وبراهينه، بأن أغرقهم بالطوفان ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ فتأمل يا أيها النبي كيف عاقبنا الذين جاءتهم النذر مع نبي الله تعالى نوح عليه الصلاة والسلام، وفي هذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم مما يلقاه من قومه ومن غيرهم، وكذلك فيه ترهيب وعظة للكافرين بما حصل لمن كفر من قوم نوح عليه الصلاة والسلام. وتطمين للمؤمنين، وتقوية لهم. مما يفيد أهمية العبرة من الأحداث.

ويخبر الله تعالى بالمزيد عن الرُّسُل وأقوامهم، ليكون في ذلك تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم، وإنذاراً للمشركين، فلعلهم يتعظوا بما حل بمن قبلهم من المكذبين من الأمم، بل ولتكون مواعظاً ودروساً مادامت حياة الناس ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ فقد بعث الله تعالى من بعد نوح عليه السلام رسلاً، وكلمة ﴿ رُسُلًا ﴾ تفيد كثرة الرسل، وكثرة الأمم التي بعث الله تعالى فيها المرسلين، ومنهم من قصهم الله تعالى، ومنهم من لم يقصصهم، كما قال تعالى في سورة النساء ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ ﴾ فمنهم: هود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب، وغيرهم عليهم الصلاة والسلام ﴿ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ فجاء أولئك الرسل إلى أقوامهم بالحجج والمعجزات والبراهين والتشريع من الله تعالى، والتي تثبت صدق نبوتهم ﴿ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ

﴿مِن قَبۡلُ﴾ فما كان ليحصل منهم الإيمان بسبب مبادرتهم بالتكذيب، فقد بادروا أنبياءهم بالتكذيب واستمروا عليه، فنفى الله تعالى تحصيل الإيمان منهم بسبب تمنعهم المسبق الذي بالغوا فيه إلى درجة كأنه لم تأتهم الحجج والبراهين، مما يدل على عتوهم، حتى بادروا بتكذيب المرسلين ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُ﴾ مما يفيد إصرارهم على كفرهم، مهما كانت الحجج والبراهين. فإن امتناعهم هو امتناع إصرار وعناد، فانتفى عنهم كل أسباب القبول. فشمل تكذيبهم دلالتين: الأولى: أنهم سائرون على نسق من قبلهم، والدلالة الثانية: أنهم مكذبون بالعذاب قبل نزوله، فاجتمعت فيهم أحوال الكذب كله.

ومن دقائق البيات تقديم النتيجة على السبب، فقدم سبحانه وتعالى النتيجة التي هي ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ﴾ أي: امتناعهم عن الإيمان بسبب ﴿بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُ﴾ فتكذيبهم المسبق، المبني على التعمد منعهم من التصديق والإيمان بالحق. وفي هذا التقديم جانب بلاغي ودلالي وبياني عظيم، حيث أن تقديم النتيجة على السبب دليل على قوة النتيجة وخطورتها، مع ضعف السبب، الذي لم يرتكز على دليل، مما يبين عمق دلالة التقديم والتأخير في القرآن الكريم، وبلاغة مبناه ومعناه، إلى درجة الإعجاز في سياقه ودلالته وبلاغته. فقد فَوَّت تكذيبهم المسبق المتقرر عندهم قبل سماع الحق، فَوَّت عليهم مصالحهم في الدنيا وفي الآخرة.

ويُستفاد كذلك من منطوق هذا النص الكريم: أن من أقوى المعضلات والمشكلات الفكرية والذهنية هو الحكم على الشيء قبل معرفة حقيقته، فيرسم لدى الإنسان تصوراً بالرفض والامتناع، أو القبول والانحدار إلى الشيء قبل معرفة مضمونه ومكنونه ومراده وأهدافه. كما يفيد النص الكريم أن سياق الآية فسر تكذيبهم، وكشف عن أن تكذيبهم مبني على المركب الذهني الخاطئ لديهم. مما يفيد أن منهج الإسلام قائم على التعقل والتثبت والدليل والعلم، وأنه منهج إنصاف وعدل. وأنه يربي في أتباعه المعتنين به المنهج الاستدلالي العلمي. ويكشف مشكلة الكثير من الناس بأنها مبنية على التخمين والتخرص، ثم الحكم من خلال ذلك.

ثم يبين الله تعالى عقوبته لهؤلاء ﴿كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ فكما طبعنا على قلوب أولئك المعتدين المكذبين، فإنه كذلك نطبع على قلب كل مكذب بالحجج والبراهين والآيات والنذر. وفي هذا إنذار للمشركين والكافرين من أن يطبع الله تعالى على قلوبهم إذا تعدوا وتجاوزا بالكفر والعناد ومحاربة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، فيجازيهم بجنس عملهم، فيمنعهم من الإيمان بسبب استكبارهم ومحاربتهم للحق الواضح لهم. كما أن في هذا تقوية وتطمين للنبي صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين، بأن الله تعالى هازم الكافرين، ومُعز المؤمنين، وأن الأمر على الله تعالى هين ويسير.

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

ينتقل السياق في تدرج بديع إلى موسى عليه الصلاة والسلام وقومه، بعد أن ذكر سبحانه وتعالى نوحاً عليه السلام وقومه، ثم الإشارة إلى أمم بين نوح وموسى عليهما الصلاة والسلام، إذ جاءتهم رُسُلهم بالبينات ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ فبعد تلك الرُّسُل عليهم السلام فقد بعث الله سبحانه وتعالى كليمه موسى وأخيه هارون عليهما الصلاة والسلام، ليتبين أن ما بين نوح وموسى عدد كثير من الرسل عليهم أفضل الصلاة والسلام. وفي التنويه بموسى وأخيه هارون من بين المرسلين ما يدل على رفعة شأنهما وعظيم أمرهما، خاصة وأن فرعون ادَّعَى لنفسه الألوهية بمصر، وكذلك للتنويه بعظيم الأحداث التي حدثت.

وبعث الله تعالى هارون بناء على رغبة أخيه موسى عليهما الصلاة والسلام. وحدد الله تعالى بعثة موسى وهارون بأنهما لفرعون وملائه ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ ﴾ وأُفْرِد فرعون بالذكر لما كان من جبروته على قومه، وطغيانه، وإفساده في الأرض، وادعاؤه الألوهية، والمقصود بملائه أي: أشرافهم المقربين، لقوة تأثيرهم على غيرهم. فبعث الله تعالى موسى بآيات عظيمة ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ والآيات هي المعجزات الكثيرة التي أظهرها الله تعالى على موسى عليه السلام، كإخراج يده من جيبه بيضاء، وتحول عصاه إلى حية تسعى، وغير ذلك مما ورد في القرآن الكريم. ولكنهم قابلوا تلك المعجزات بالتكذيب، نتيجة الاستكبار ﴿ فَٱسْتَكْبَرُواْ ﴾ فلم يقبلوا الحق استكباراً وتعظيماً لأنفسهم، ولم يكن امتناعهم من قصور في الآيات المعجزة، الموجبة للتصديق والانقياد، أو لسوء فهم، بل حصر الله تعالى بيان

امتناعهم لما في أنفسهم من الاستكبار والاحتقار لكل ما يخالفهم ﴿ فَٱسْتَكْبَرُواْ ﴾ ثم أكد جَلَّ جلاله ذلك بما كانوا عليه من الإجرام ﴿ وَكَانُواْ قَوۡمًا مُّجۡرِمِينَ ﴾ فصفتهم أنهم جماعة مجرمة، قد تعاظم جرمهم، فأصبح الإجرام خُلُق لهم، فقد دأبوا عليه، ونَشَّأوا أنفسهم على ذلك. بما يفيد أن الاستكبار يقود للإجرام، وحب التعالي، وعدم الإذعان للحق، بل وصده ومحاربته.

ويخبر الله تعالى بالمزيد من تفاصيل جواب فرعون وملائه لموسى عليه السلام ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴾ فلما جاء موسى عليه السلام إلى فرعون وملائه بالمعجزات والحجج من عند الله تعالى، فعرفوا أنه هو الحق، وأنه من عند الله تعالى نسبوا ذلك للسحر، مكابرة منهم ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴾ وأكدوا إصرارهم بوصفه أنه سحر ﴿ مُّبِينٞ ﴾ أي: واضح لا لبس فيه، كذباً وبهتاناً، وهم يعلمون أنه أبعد شيء عن السحر. فقد سماه عَزَّ وجل بالحق ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا ﴾ ودلالة كلمة ﴿ ٱلۡحَقُّ ﴾ تفيد وضح حقيقته، من أنه حق لا تخالطه الشكوك أبداً، وجملة ﴿ مِنۡ عِندِنَا ﴾ تبين أن المصدر له هو الله تعالى، فلن تكون الآية والحجة غامضة، أو ضعيفة، بل ستكون واضحة ومبهرة حقاً. فرد عليهم موسى عليه السلام بقول الله تعالى عنه ﴿ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمۡۖ أَسِحۡرٌ هَٰذَا وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴾ فبادرهم موسى بما هو حق، وبما تحقق عندهم أنه حق ﴿ أَتَقُولُونَ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمۡۖ أَسِحۡرٌ هَٰذَا ﴾ أتعيبون وتطعنون في الحق، بدلاً أن تقبلوه وتُذعنوا له وتعظموه. فهو سؤال استنكار واستغراب، وتقريع وتوبيخ، لمخالفتهم مما كان يجب عليهم، بما يفيد أنه كان عليكم أن لا تقولوا للحق الواضح المبين سحراً، وتزيدون في الافتراء عليه بأنه واضح مبين.

ويفيد تكرار السؤال الاستنكاري المزيد من تعظيم الحجج، مع الاستغراب والاستنكار الذي يحمل مزيد التعجب من جوابهم عن الحق، بأنه سحر مبين، مما يفيد التقريع لهم على إنكارهم الحق ﴿ أَسِحۡرٌ هَٰذَا ﴾ فهو سؤال استنكاري تعقيبي، يفيد الدهشة من جوابهم، إذ كيف يخطر في بالكم هذا الوصف للحق الواضح، فتقولون بأنه سحر. فإنه أمر مستغرب ومستبعد، بما يؤكد أنه جحود منهم للحق الواضح المبين. ثم تؤكد الآية الكريمة خطأ ما زعموه، وذلك من خلال الأثر ﴿ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴾ فالساحرون لا يفلح أمرهم، ولا يظفرون ولا يفوزون بمطلوب، ولا يتحصلون بسحرهم على خير. وهي حجج عملية على ما فيها من إعجاز وحجج

عقلية لا مفر لهم منها، بما ينتج عنه: أنهم قوم بهت، ينكرون الحق الواضح بسبب استكبارهم. مما يفيد أن المتكبر يدفع الحق بكبره، حتى وإن كان من عند الله تعالى، فنعوذ بالله تعالى والمسلمين منه.

فلما أُفْحِمُوا بالحجج والآيات العظيمة عدلوا إلى الهروب نحو تعليل مراد موسى وهارون، بأنه من أجل صرفهم عن معبوداتهم ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا ﴾ فهروباً عن المحاجة المدحضة لهم، تحولوا إلى تعليلهم لمراد موسى وهارون بأنهما يريدان أن يصرفونهم عما ورثوه عن آبائهم من عبادة غير الله تعالى، ثم عززوا أمرهم بتأويل فاسد آخر ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ فتقصدون من هذا تحقيق التعاظم والزعامة الدنيوية، فيكون لكما الملك والسلطان والشرف والطاعة والعلو في أرض مصر. فهي ذريعة واهية لما هو مُتَصَوَّر في أذهانهم الواهية، حتى يقنعوا أنفسهم بما يحبون البقاء عليه، مما يبين أنه قد ترسخ في أذهانهم أن ثمة علاقة بين الكبر وبين الرئاسة والشرف، فالهدف من تحقيق السلطان والشرف هو من أجل الاستكبار والتعالي، ولذلك لم يقولوا: وتكون لكما الرئاسة أو الشرف، أو الطاعة، بل ذهبوا إلى الكبرياء ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ لما ترسخ في عقولهم ومنهجهم وسلوكهم من مقاصد ذلك في تحقيق الاستكبار والتباهي والرفعة على الغير، فقد بنوا إنكارهم بتخطئة مقصد ونية موسى وهارون عليهما السلام، فعدلوا عندما أفحموا بالحجج إلى النوايا والمقاصد، المبنية على الباطل.

وكذلك أنه من ضعف حجتهم أنهم انتقلوا وعدلوا إلى ما ورثوه عن آبائهم من غير دليل على صحة ما ورثوه عن آبائهم إلى القول ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا ﴾ فقد كذبوا بالحق الذي عليه البرهان والدليل من الله تعالى، وانساقوا إلى متابعة الآباء. مما يفيد أن منهجهم قائم كذلك على التقليد والتبعية المطلقة، من غير دليل ولا برهان، بينما دين الله تعالى مبني على العلم والدليل والبرهان، وأن على الإنسان أن يفكر في الحقيقة، وماهي عليه، وألا يجعل تفكيره قائم على ما اعتاد عليه وورثه من غيره. ثم خرجوا بعد تلك لمحاجة العظيمة بحكم خاص بهم، يوضح أن اتجاههم قائم على العناد والاستكبار ﴿وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ ﴾ فلسنا طائعين ولا مؤمنين بما جئتما به من المعجزات، بمعنى مهما كانت الحجج والبراهين والآيات فلسنا بمؤمنين لكما.

ثم اتجه فرعون إلى أمر آخر، توهماً منه أنه سينتصر به على ما جاء به موسى من المعجزات ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ٱئۡتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ ﴾ فأمر فرعون الملأ من حوله، الذين يمثلون حاشيته بأن يجمعوا له جميع السحرة الماهرين في السحر ﴿بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ ﴾ بما يفيد: فلا تأتوني بضعاف السحرة غير الماهرين ﴿ فَلَمَّا

جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴾ فلما اجتمع السحرة في المكان المحدد، والوقت المعين ﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴾ فبادرهم موسى عليه السلام بأن يلقوا ويطرحوا ما جاؤوا من سحرهم المتكون من الحبال والعصي أمام الحاضرين. فاطرحوا الشيء الذي تريدون طرحه. وفي قول موسى للسحرة ﴿ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴾ ما يفيد عدم مبالاته بما سيقومون به، فلم يسألهم عن ما هو سحرهم، وماذا يريدون أن يعملوا، وإنما قال في ثقة بالله تعالى، واعتزاز به وبنصره ﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴾ اطرحوا الذي تريدون طرحه من سحركم ﴿ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ﴾ فعندما أصبحت حبالهم وعصيهم تسعى وكأنها حيات، واسترهبوا بها الناس، وحصل الذهول عند الحاضرين مما أصاب أعينهم من السحر، الذي يقع فعله على عيون الناس، إذ لم يكن حقيقة فيما ألقوا، بل كان صورة في عيون الحاضرين، وهنا علق موسى الأمر بالله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ﴾ ولم يقل الآن أُظهر لكم بطلان سحركم بل كما قال تعالى ﴿ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ﴾ فأكد لهم أولاً حقيقة ما قاموا به، أنه سحر ﴿ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ﴾ ثم أكد لهم أن الذي سيبطله إنما هو الله تعالى بقوته وقدرته وليس بقدرتي ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ﴾ فالذي سيبطل ما استرهبتم به الناس هو العلي العظيم، ولثقته من ربه تبارك وتعالى أكد أن الله تعالى سيبطله بنون التوكيد ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ﴾ ثم أكد لهم أن عملهم هذا غير صالح، وأن الله تعالى لا يرضاه أبداً، وبالتالي لن يجعل له أثراً ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ فإن الله تعالى لا يصلح عمل الساعي بالفساد في الأرض. وجاء الحكم عاماً لكل مفسد، ليستوعب ويشمل أعمالهم من السحر، وغيرها من الأعمال الأخرى الفاسدة، كتزيين عبادة غير الله تعالى، واستضعاف الناس، واستعبادهم، وغيرها مما لا يحصى من أعمال الفساد، فهي قاعدة عظيمة عنهم ولهم ولغيرهم.

فإن قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ قاعدة عظيمة وجليلة القدر والمنزلة والمكانة، إذ أنها علاجية، وإنمائية، ووقائية، فهي تربي عند المؤمن مسالك الخير، والبعد عن الفساد، فإذا تعرض المؤمن لأمر يتطلب مسلكاً فاسداً، قال لنفسه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ وإذا دعاه أحد لمفسدة، قال ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ وإذا احتار بين فعل الفساد وتركه، عالج نفسه بقوله عَزَّ وجل ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ وإذا نصح أحداً عن فساد قال له ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ

ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ وكذلك أن يدرك كل أحد أن العمل الفاسد لا يكتب الله تعالى له الصلاح، ولا ينميه ولا يبارك فيه، فالخير ممتنع عليه، لأن القاعدة الربانية تقول ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ فهي قاعدة في انتصار الحق على الباطل.

ثم بين لهم موسى منهج الله تعالى في ترسيم الحق وإعلائه، وهدم الباطل وأهله ﴿ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ فإن الله تعالى يثبت الحق، ويعلوا به على الباطل بأمره عَزَّ وجل، حتى ولو كره المجرمون ذلك الحق، فتصدوا له بكل ما يملكون ويستطيعون، فإن قهر الله تعالى متحقق على الباطل بقوة الحق، مما يعني لهم أن الله تعالى سيثبت الحق الذي جئتكم به من عنده، ويعلوا به على باطلكم بكل أنواعه وصوره، وذلك ﴿ بِكَلِمَٰتِهِۦ ﴾ أي: بأمره وقضائه، فإنه تبارك وتعالى إذا أمر بأمر كان ما أراده عَزَّ وجل متحقق ولو كرهتم ذلك وناصبتموه العداء، واستجمعتم له قواكم وما تملكون لدفع ما تكرهون من الحق ﴿ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ ﴾ وسمى الله تعالى من يضاد أمره بالمجرم ﴿ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ لعظيم جرمه، وعظيم ما اكتسب به من الإثم، وعظيم عذابه. فنسأل الله تعالى العافية والسلامة.

﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾

يخبر الله تعالى بالمزيد من أمر موسى عليه السلام، وما حصل من فرعون وقومه، فبدأ الله تعالى ببيان من آمن مع موسى عليه الصلاة والسلام ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ ﴾ فالذين آمنوا مع

موسى ليسوا بكثير، فإنما يمثلون ذرية من قومه، قال مجاهد رحمه الله تعالى: أولاد الذين أُرسِل إليهم، من طول الزمان، ومات آباؤهم، ورجحه الإمام الطبري رحمه الله تعالى: أن الذرية في هذا الموضع، أريد بها ذرية من أرسل إليهم موسى من بني إسرائيل، فهلكوا قبل أن يقروا بنبوته لطول الزمان[١] وهذا الإيمان محفوف بالتخوف من قهر فرعون وجبروته وظلمه ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوۡمِهِۦ عَلَىٰ خَوۡفٍ مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ أَن يَفۡتِنَهُمۡ ﴾ فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه، من بني إسرائيل، وهم خائفون من فرعون وملائهم أن يفتنوهم[٢] مما يدل على جبروت فرعون وملائه على الذرية الذين آمنوا.

ثم وصف الله تعالى فرعون بما يوضح ويبين قهره وظلمه لغيره ﴿ وَإِنَّ فِرۡعَوۡنَ لَعَالٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾ ففيه صفتان من صفات الجبابرة، الأولى: ﴿ وَإِنَّ فِرۡعَوۡنَ لَعَالٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ بما يفيد التكبر والتجبر، والاحتقار، والاستصغار للغير، فيهينهم ويذلهم. والصفة الثانية: مجاوزة الحد في استعلائه، وفي عامة شؤونه ﴿ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾ والإسراف هو مجاوزة الحد، حتى أنه من إسرافه وتماديه في الكفر أن ادعى الربوبية لنفسه.

ويوجه موسى عليه الصلاة والسلام قومه من بني إسرائيل إلى ما يجب عليهم، إزاء تهديد فرعون لهم، بقتل أبنائهم، واستحياء نسائهم ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ﴾ فيرشدهم إلى عبادة عظيمة، وهي التوكل على الله تعالى. مما يبين أهمية التوكل، وأن من مستلزمات الإيمان الاعتماد على الله تعالى، وتفويض الأمر إليه، فهو نعم المولى، ونعم الوكيل. مبيناً لهم العلاقة بين الإيمان وبين التوكل وبين حقيقة الإسلام ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ﴾ فإن الاستسلام لله تعالى يقتضي التوكل على الله تعالى، وتفويض الأمر إليه، وأن التوكل من علامات الإيمان ولوازمه. كما يفيد هذا التوجيه الكريم أن ما أنتم فيه من محنة لا يكشفها إلا الله تعالى ﴿ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ﴾ فلن تستطيعوا أن تنفكوا من فرعون وجيشه وبطشه إلا بأن تجعلوا الله تعالى وكيلكم وحسبكم. وهذا يبين أهمية التوكل بعد الأخذ بالأسباب، وأنها من لوازم الإيمان والنصر، وإزالة الشدائد، وفك الأزمات، وأنها من حقائق الإسلام الذي هو الاستسلام لقضاء الله تعالى وقدره، والتوكل والاعتماد عليه. وفي هذا البيان من موسى عليه السلام لقومه ما يثبتهم به، ويقويهم ويشجعهم على الثقة بالله تعالى، وتفويض الأمر إليه

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٢/٢٤٦-٢٤٧)

(٢) المرجع السابق (١٢/٢٤٨)

عَزَّ وجل. كما أن فيه تشجيع لهم في أنفسهم، وتقوية لنفوس أبنائهم ونسائهم. وفيه كذلك نفي الاعتماد على القوة الذاتية، أو الحيل الواهية، أو الاستسلام والتذلل لفرعون وملائه. فالتوكل قوة قلبية عظيمة الأثر. فإنها القوة الحقيقية في مدافعة الخوف من الأعداء، وفي غيره من مواقف الحياة المختلفة والمتنوعة والمتعددة، والمتكررة أحياناً.

ومن جميل البيان ودقته في هذا التوجيه الكريم أن ربط سبحانه وتعالى بين التوكل وبين الإيمان، وكذلك الربط بين التوكل والإسلام، مع عدم تكرار لفظ التوكل ﴿ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ ﴾ وارتبط التوكل كذلك بالإسلام ﴿ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ ليكون شرطاً ثانياً، ومؤكداً للشرط الأول، وهو الإيمان. وهذا من إبداع البيان وتألقه وجزالته، مع عمق جمال تراكيب ألفاظه، وبناء سياقه، الذي يظهر فيه إعجاز بلاغته، وجمال أسلوبه، وحلاوة سبكه.

وبعد هذا البيان لحقيقة منهج التوكل، بادره قومه بالطاعة والاستجابة ﴿ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ أي: فوضنا أمرنا إليه تبارك وتعالى، ووثقنا به، ثم زادوا على تقريرهم بتوكلهم على الله تعالى أن طلبوا من الله جَلَّ جلاله مطلبين، الأول: ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فيا ربنا لا تجعلنا مكان فتنة لفرعون وقومه، فيتمكنوا منا، فيقولون: نحن على حق، بأن ظفرنا بكم، فيزدادوا بذلك كفراً، بسبب افتتانهم بما حصل لنا منهم. قال ابن كثير رحمه الله تعالى، وبمثله ورد عن ابن جرير رحمه الله تعالى: أي لا تظفرهم بنا، وتسلطهم علينا، فيظنوا أنهم إنما سُلِّطُوا لأنهم على الحق، ونحن على الباطل، فَيُفتَنوا بذلك[1] وأما الطلب الثاني من الله تعالى فهو: ﴿ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ وخلصنا يا رب بقدرتك وبرحمة من عندك من القوم الكافرين، الذين يمثلهم فرعون ومن معه. فقد فَوَّضُوا شأن النجاة والخلاص من فرعون وبطشه إلى الله تبارك وتعالى، وأن تكون هذه النجاة برحمة منه سبحانه وتعالى، لا لإيمانهم، ولا لطاعتهم، ليتبرؤوا من حولهم وقوتهم، ونعتوا فرعون ومن معه بصفة الكفر، لما فيها من قوة المعصية لله تعالى.

ثم ينتقل البيان الكريم إلى تدبير الله تعالى، بما أوحى به عَزَّ وجل إلى موسى عليه السلام، فقال الله تعالى ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فقد أوحى تبارك وتعالى إلى كليمه موسى وأخيه هارون عليهما السلام ﴿ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ قال المفسرون: لما أُرسل

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٤٤٤)

موسى، أمر فرعون بمساجد بني إسرائيل فَخُرِّبت كلُّها، ومُنِعُوا من الصلاة، وكانوا لا يصلون إلا في الكنائس، فَأُمِرُوا أن يتخذوا مساجد في بيوتهم، ويصلون فيها خوفاً من فرعون. ومعنى ﴿أَن تَبَوَّءَا﴾ أي: اتخذا[١] فجعل التبوؤ وهو الاتخاذ من من موسى وهارون لقومهما، باعتبار أنهما اللذان يوجِّهَان القوم، ومنهما يتخذون التعليمات من الأمر والنهي ﴿وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: أي جهة الكعبة[٢] وقيل: إلى بيت المقدس، وعن ابن عباس، قال: وكانت الكعبة قبلة موسى ومن معه[٣] وفي هذا بيان لأهمية استقبال القبلة في الصلاة، وأنها كانت شرطاً في دين موسى وهارون عليهما السلام، ولأهمية استقبال القبلة تم اتخاذ كافة التدابير والوسائل لإصابة القبلة في الصلاة ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: فأدوا الصلاة بحدودها كما أمرتم بها، وفي هذا دليل على أن الصلاة كانت فريضة على من قبلنا بالهيئة التي فرضت عليهم، وكذلك وجوب أدائها كما فرضت، رغم وجود العدو، ومحاربته لهم ولها ولأماكنها، مع الخوف الذي يصيبهم من ذلك. وهذا دليل على منزلة الصلاة، ومكانتها ورفعتها، وما لها من أثر على المؤمن في الدنيا والآخرة، ولا أدل على ذلك مما لحقها من البشارة من الله تعالى، حيث قال عزَّ وجل عقب ذكرها ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بما يفيد: وبشر المؤمنين الذين يقيمون الصلاة، بأن الله تعالى ناصرهم، ومظهرهم على عدوهم، خاصة وقد كان الخوف يحف بهم، ويطويهم من كل جانب، حيث سألوا الله تعالى فيما سبق من الآيات ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

وهذا باعتبار البشارة في حق المؤمنين من قوم موسى، وأما باعتبار عموم سياقها، فبشر يا محمد المؤمنين بالثواب الجزيل، بعد أن سمعوا ما واجهه موسى وقومه من عدوهم. فلا تيأسوا، فكما نَجَّا الله تعالى موسى ومن معه، ونصرهم على فرعون ومن معه، فأبشروا بنصر الله تعالى، وحافظوا على ما فرض الله تعالى عليكم. وكذلك بعموم سياقها فهي بشارة لكل مؤمن التزم طاعة الله تعالى. مما يدل على رحابة هذا السياق الذي أظهر دلائل الإعجاز البياني في القرآن الكريم، وقوة بلاغته.

ثم يخبر الله تعالى بما كان من موسى عليه السلام، في استنجاده بربه تبارك وتعالى، ومناجاته له، بإظهار ضعفهم مقابل إظهار جبروت فرعون، الذي لم يشكر الله تعالى على ما أنعم به عليه وعلى قومه ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فابتدأ موسى

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٤/٤٧)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٢/٢٥٧)

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٨/٢٣٧)

عليه الصلاة والسلام الدعاء بالنداء ﴿ رَبَّنَآ ﴾ الذي يفيد الالتجاء والاحتماء به، وورد النداء بصفة الربوبية ﴿ رَبَّنَآ ﴾ ومالكنا، وبصيغة الجمع، بأنه رب الجميع، فهو رب كل شيء ومليكه، مما يفيد الخضوع والتذلل لله سبحانه وتعالى. ثم أجمل في الوصف، بمقدمة جمع فيها ما أنعم الله تعالى به على فرعون وقومه ﴿ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ وكذلك نسب العطاء لله عَزَّ وجل ﴿ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ ﴾ فإن الذي فيه فرعون من الخير هو من كريم عطائك وفضلك يا رب، ولكنه لم يشكرك ويطيعك، بل تعالى عليك، فيا رب قد أعطيت فرعون وأشراف قومه ﴿ زِينَةً ﴾ وهي كل ما تتزين به حياتهم ونفوسهم، من الجاه والمباني، والمجوهرات والحلي، وكذلك أغدقت عليهم بالأموال ﴿ وَأَمْوَٰلًا ﴾ من الذهب والفضة، وغيرها من مظاهر أموال الدنيا ﴿ رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ ﴾ يا ربنا قد حصلوا على تلك النعمة العظيمة، فضلوا بذلك وأضلوا، فيضلوا عبادك عن سبيلك، لأنها أغرتهم بالطغيان، والتمادي والاسترسال في صد الناس عن الإيمان. مما يفيد أن سؤال موسى ربه تبارك وتعالى أن يهلك فرعون لأنه يضلل عباد الله عن سبيل الله عَزَّ وجل، وليس من أجل الانتصار عليه.

فبعد هذه المقدمة في الدعاء، والموضحة لسبب ما سيطلبه من الله تعالى سأل موسى ربه تبارك وتعالى أن يهلك فرعون وملائه ﴿ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ فكرر موسى النداء لله تعالى بالربوبية ﴿ رَبَّنَا ﴾ وبصيغة الجمع أيضاً، والتي مفادها أنك رب الجميع، فإنك رب كل شيء ومليكه، والمتصرف فيه بما تشاء ﴿ ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾ والطمس للشيء إزهاقه، ومحوه، فأهلك أموالهم، وأيضاً ﴿ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ اطبع عليها، فأهلكهم على كفرهم. قال ابن جرير رحمه الله تعالى: يعني: واطبع عليها، حتى لا تلين، ولا تنشرح بالإيمان[١] ﴿ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ فلا يحصل منهم التصديق والإيمان إلا حال يرون العذاب الموجع من شدته. قال الشوكاني رحمه الله تعالى: أي لا يحصل منهم الإيمان إلا مع المعاينة لما يعذبهم الله به، وعند ذلك لا ينفع إيمانهم، وذكر الإمام الشوكاني عن علة الدعاء عليهم: أنه لعلم الله تعالى أنه لن يؤمنوا، فكان دعاؤه بإذن الله عَزَّ وجل[٢] وقال ابن الجوزي

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٦٧/١٢)

(٢)الشوكاني، فتح القدير (٤٦٩/٢)

رحمه الله تعالى: أن بعضهم يقول: أن ذلك بوحي، وهو قول صحيح، لأنه لا يُظن بنبي أن يقدم على مثل ذلك إلا عن إذن من الله عَزَّ وجل[1] فإن في علم الله تعالى المسبق أنهم لن يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم، فدعا عليهم بما سيكون منهم، والله تعالى أعلم.

فرد الله تعالى على موسى وهارون باستجابة دعائهما ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ فمن كرم الله تعالى أن استجاب دعاءهما. ومن غزارة معنى إجابة الله تعالى لموسى وهارون أن جمع بين موسى وهارون في الدعاء ﴿دَّعْوَتُكُمَا﴾ والذي دعا هو موسى عليه السلام، كما في قوله تعالى فيما سبق من الآيات ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ قال ابن جرير رحمه الله تعالى: إن الداعي وإن كان واحداً، فإن الثاني كان مؤمناً، وهو هارون، فلذلك نسبت الإجابة إليهما[2] ولا شك أن هارون يطلب ما يطلبه موسى، ويرغب في أن يقع على فرعون ما يرغبه ويطلبه موسى، وفيه كذلك أن ذلك المطلب وإن كان الذي دعا به موسى، فإن أخاه هارون يشاركه في الرغبة والطلب، وكذلك في ضم هارون عليه السلام إلى موسى تكريم له. ويستفاد منه أهمية التكريم لمن يستحقه، ورفع منزلته مع المكرمين.

ثم يأمر الله تعالى موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام بالاستمرار فيما هما فيه ﴿فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فاثبتا على ما استقمتا عليه من الحق والدعاء، والدعوة إلى الله تعالى، حتى يقضي الله تعالى أمره ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ولا تسلكا مسلك الجاهلين، الذين لا يعلمون حقيقة وعدي، قال الشوكاني رحمه الله تعالى: النهي لهما عن سلوك طريقة من لا يعلم بعادة الله سبحانه في إجراء الأمور على ما تقتضيه المصالح، تعجيلا وتأجيلا[3] مما يفيد عدم الاستعجال في رؤية الاستجابة للدعاء، فإن لله تعالى حكمة في التأخير والتأجيل، فهذا كليم الله تعالى، ومعه هارون عليهما السلام، ومع ذلك يأمرهما الله تعالى بعد أن أخبرهما بإجابة دعائهما، أن عليهما الاستمرار فيما أمرهم الله تعالى به، إلى أن يقضي الله تعالى ما طلبوه منه عَزَّ وجل، من إهلاك فرعون وملأه. وألا يلتفت ولا يسلك المؤمن مسلك الجاهلين في تدبير الله تعالى وحكمته عند معالجة الأمور، بل يصبر ويدعو ويستقيم إلى أن يقضي الله ما يشاء،

(١)ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٥١/٤)
(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٧٠/١٢)
(٣)الشوكاني، فتح القدير (٤٦٩/٢)

في الوقت الذي يقتضي حكمته ومشيئته وعلمه العظيم سبحانه وتعالى. وهذا أدب ومنهج عظيم، وجدير بالمؤمن أن يتحلى به.

﴿ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدۡ بَوَّأۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدۡقٖ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخۡتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾

يخبر الله تعالى بما امتن به على بني إسرائيل من النصر والنجاة، وإهلاك فرعون وجنوده ﴿ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ أي: تخطينا بهم وعبرنا وقطعنا ببني إسرائيل البحر، وقد نسب الله تعالى فعل التجاوز إليه ﴿ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ ﴾ فخاضوا البحر بكريم فضله وعونه سبحانه وتعالى، قال الطبري رحمه الله تعالى: إذ كانوا اثنى عشر سبطاً، فَفَرَقَ سبحانه وتعالى البحر اثنى عشر طريقاً، فسلك كل سبط منهم طريقاً، حتى يسهل عليهم العبور[1] وذلك فضل الله تعالى، فإنه إذا أراد شيئاً أجراه كما يشاء، بعلمه وقدرته وحكمته. وهنا تابعهم فرعون ﴿ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ ﴾ فلحق بهم فرعون وجنوده ﴿ بَغۡيٗا وَعَدۡوًا ﴾ فكانت متابعته لهم من باب البغي ﴿ بَغۡيٗا ﴾ الذي هو الظلم ﴿ وَعَدۡوًا ﴾ أي: اعتداء وتعدياً. وذلك طلباً للاستعلاء عليهم بغير حق. مما يفيد أن الاستكبار يقود إلى محبة الاستعلاء، ومحبة الاستعلاء تقود للظلم والاعتداء بغير حق في القول والعمل.

ثم يخبر الله تعالى بكيفية إهلاك فرعون وجنوده ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ ﴾ أي: حتى إذا ألجمه الغرق ﴿ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ لأنه لما علم بما كان من موسى ومن معه من بني إسرائيل لحق بهم، وتتبع مسيرهم، ففرق الله تعالى البحر لموسى ومن معه،

---

(1) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١/٦٥٤)

فجاوزوه، وخرجوا إلى الطرف الآخر، وبقي فرعون وجنوده يسيرون خلفهم في الممرات التي فرقها الله تعالى لموسى عليه السلام ومن معه، فلما تكامل دخول فرعون وجنوده في ممرات البحر، انطبق البحر عليهم. وهنا حصل منه التحسر على فعله، عند معاينته الموت الذي لا مفر منه ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ فلما عاين الموت، ورأى كيف نجّى الله تعالى موسى عليه السلام ومن معه، اعترف بالله تعالى، وبصدق موسى ومن آمن معه من بني إسرائيل، حينها لم ينتفع بذلك الإيمان، لمشاهدة الموت وملائكة العذاب. ولم يقل آمنت بالله رباً، بل عدل عنه إلى التقليد، بأن آمنت وصدقت بالذي آمنت به بنو إسرائيل، وأنا مستسلم مع من استسلم للذي آمنت به بنو إسرائيل، فلم يتشرف بذكر لفظ الجلالة، سبحانه وتعالى، لأنه لم يتشرف به وبطاعته عندما كان في بحبوحة من أمره. مما يفيد أهمية اغتنام سعة الحياة بدوام ذكر الله تعالى وطاعته عَزَّ وجل.

فيرد الله تبارك وتعالى على إيمان فرعون، بسؤال استنكاري وتعجبي ﴿ ءَآلۡـَٰٔنَ ﴾ أتؤمن الآن، عندما رأيت الموت متحقق منك، فهو سؤال يحمل دلالة التعجب من هذا الإيمان، عند معاينة الموت، واستنكار هذا المسلك الذي يرفض فيه الإيمان بالحجج والبراهين العظيمة، ثم يريد الإيمان ساعة معاينة الموت، وانتهاء حياته، وفي هذا ما يفيد التقريع والتوبيخ ﴿ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾ فأين كنت عندما أتتك آيات الله تعالى، وقد عصيت وتعاليت، وكنت تكذب بها وتحاربها، وتتغافل عنها استكباراً في الأرض وتعالياً على الحق الذي ظهر لك ولقومك، وانضممت إلى حال الذين يفسدون ولا يصلحون، فتحقق فيك الفساد، فأما جزاؤك فهو ﴿ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗ ﴾ فالنجاة اليوم ستكون لبدنك، أي لجسمك، من أجل تكون عبرة وآية لمن خلفك. مما يعني أن روحك ستذهب للعذاب، فلن ينجو منك غير البدن. فسبحان الله تعالى الذي جعل جثة فرعون آية، محفوظة إلى اليوم، وإلى أن تفنى هذه الحياة الدنيا.

ثم تأتي الموعظة من الله تعالى للعباد أجمعين ﴿ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾ ومع هذه الحادثة وغيرها من الآيات، فإن كثيراً من الناس في غفلة منها، فلو تدبروها واعتبروا بها للزموا الحق، ولما كان الكثير من الناس كافرين، بسبب أنهم عن آيات الله تعالى غافلون، فدل ذلك على أن القليل هم الذين يتأملون ويعتبرون ويطيعون، فلا تنخدع أيها الإنسان بالكثرة، بل الزم الحق وأهله، ولو كانوا قليلاً.

وبعد أن أوضح وبين الله تعالى حال الكافرين، وما حصل لفرعون وجنوده، بما تحصل به الموعظة لكفار قريش وللعرب، ولغيرهم من الناس أجمعين، ولمن بعدهم إلى قيام الساعة، يوضح ويخبر الله تعالى بحال

من أطاعوه، وكيف كانت عاقبتهم، وكيف كان حالهم ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٖ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ فإن مما امتن الله تعالى به على بني إسرائيل أن بوأهم مبوء صدق، أي: أنزلهم وأسكنهم مكاناً كريماً محموداً، فالصدق يفيد المدح والثناء، قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: عُني بذلك الشام وبيت المقدس، وقيل عني به الشام ومصر[1] ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي: المباركات والمستلذات من الأرزاق.

ثم يذكر الله تعالى حدوث الاختلاف في بني إسرائيل ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ فما اختلف بنو إسرائيل حتى جاءهم ما كانوا به عالمين، وذلك أنهم كانوا قبل أن يُبعث محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم مجمعين على نبوته، ومُقرين به وبمبعثه صلى الله عليه وسلم، وغير مختلفين على النعت الذي يجدونه مكتوباً عندهم في الكتاب، فلما جاءهم ما عرفوا كفر أغلبهم بنبوته صلى الله عليه وسلم، وآمن بعضهم ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فإن ربك يا محمد يقضي بين المختلفين فيك من بني إسرائيل يوم القيامة[2] فالكافرين بك مصيرهم النار، والمصدقين المؤمنين بك يدخلون الجنة.

﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكّٖ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾

وبعد أن انتهى البيان العظيم عن موسى عليه الصلاة والسلام وقومه المؤمنين به، يتدرج البيان الكريم إلى بيان اتفاق أهل الكتاب على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم كما وردت في التوراة، ولما بَعث الله نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وجاءهم العلم بحقيقته اختلفوا، فمنهم من آمن به، ومنهم من كفر، ثم انتقل السياق الكريم إلى المزيد من إثبات نبوته صلى الله عليه وسلم من خلال أهل الكتاب ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكّٖ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ هذا التوجيه الكريم جاء من الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم بسؤال مفاده التأكيد، بأن

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٨٤/١٢)

(٢) المرجع السابق (٢٨٤/١٢-٢٨٥)

أمر نبوتك أيها الرسول حقيقة لا ريب فيه، وأن أهل الكتاب يعرفونك تماماً، وذلك لما ثبت من وصفك في التوراة والإنجيل، فإنهم يخبرونك بذلك، والسؤال لا يقع إلا على الثقات منهم ﴿ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ﴾ فاسأل ثقاتهم فإنهم يخبرونكم. ومن مميزات توجيه السؤال للنبي صلى الله عليه وسلم ما يستثير به كل شاك في أمر الرسول صلى الله عليه وسلم، بأن تسألوا الثقات من أهل الكتاب ﴿ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ﴾ كما أن السياق الكريم جاء بأسلوب طلب التحقق، وتقرير علم أهل الكتاب بنبوته وأوصافه صلى الله عليه وسلم، وليس هو لتقرير الشك، وقد قال سعيد بن جبير رضي الله عنه: لم يشك النبي صلى الله عليه وسلم ولم يسأل. وورد عن قتادة رضي الله عنه، قال: بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (لا أشك ولا أسأل)[١] والعرب استجازت قول القائل منهم: لولده: إن كنت ابني فَبِرَّني، أو اعمل كذا، وهو لا يشك في ابنه أنه ابنه، ويقول لعبده: إن كنت عبدي فأطعني[٢] قال الزمخشري رحمه الله تعالى: أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم مكتوب عندهم في التوراة والإنجيل، وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، فأراد أن يؤكد علمهم بصحة القرآن، وصحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، ويبالغ في ذلك، فإن وقع شك فرضاً وتقديراً[٣] فهو سؤال بأسلوب طلب التحقق، لتقرير علم أهل الكتاب بنبوته وأوصافه صلى الله عليه وسلم، وليس تقرير الشك، وأيضاً هو استدفاع لكل شاك أن يسأل أهل الكتاب ﴿ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ﴾ وكذلك فيه حجة على أهل الكتاب الذين صدوا ولم يؤمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم. ولذلك قال بعض أهل العلم: الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، والمراد غيره، أي لست في شك، ولكن غيرك شك[٤] ويؤكده قول النبي صلى الله عليه وسلم (لا أشك ولا أسأل)

ثم يقرر تبارك وتعالى لكل شاك، ولأهل الكتاب كذلك، أن الذي نزل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم هو الحق الذي لا ريب ولا شك فيه ﴿ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ قال الطبري رحمه الله تعالى: يقول تعالى ذكره: أُقسم لقد جاءك الحق اليقين من الخبر، بأنك لله رسول، وأن

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٢/٢٨٧-٢٨٨)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٤/٥٤)

(٣) الزمخشري، الكشاف (٢/٣٦٦)

(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٨/٢٤٤)

هؤلاء اليهود والنصارى يعلمون صحة ذلك، ويجدون نعتك عندهم في كتبهم ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ فلا تكونن من الشاكين في صحة ذلك وحقيقته ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ ولا تكونن يا محمد من الذين كذبوا بحجج الله تعالى، وأدلته، فتكون ممن غُبِن حظَّه، وباع رحمة الله ورضاه بسخطه وعقابه(١) وفي هذا البيان من الله تعالى تعظيم لخطورة التكذيب بآياته، فلو أن هذا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، الذي اصطفاه ربه من بين خلقه، وجعله سيد المرسلين، فإنه لو حصل منه خلاف ما قامت به الحجة لأصبح من الخاسرين، فكيف بغيره، وهو سيد المرسلين، وحاشاه أن يحصل منه خلاف ما أمره الله تعالى به. وفي هذا تعظيم وتهويل لجزاء الكافرين، ومثل هذا السياق ما جاء في قوله صلى الله عليه وسلم في تهويل وتعظيم حد السرقة، عندما قال عليه الصلاة والسلام (لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها)(٢) وحاشاها أن تسرق، ولكن لتأكيد تطبيق حد السرقة، وأنه لا مجال لإسقاطه عن أحد، مهما كانت منزلته من النبي صلى الله عليه وسلم، وكذلك لا مجال من تحقق وقوع الخسارة على من كذب بآيات الله تعالى، ولو كان محمد صلى الله عليه وسلم. وهذا تقرير وقطع لكل شاك، فهو تقرير من الله تعالى، وشهادة عظيمة بعد جميع تلك الشواهد بأن هذا الذي جاء من العلم والبيان حق لا يخالطه باطل.

فَيُثْبِتُ عموم النص الكريم أن نبوة النبي محمد عليه الصلاة والسلام حق، وما أنزل عليه حق، وما تضمنه القرآن من أخبار هي حق، وأن كامل القرآن حق، وما قاله صلى الله عليه وسلم حق. ومن كذب بآياته فهو من الخاسرين الذين لا عِوض لخسارتهم. بل ومن قوة الشهادة وعظمتها وعظيم مضمونها أنها مخاطبة من الله تعالى إلى رسوله صلى الله عليه وسلم بالمضمون، بما يؤكد لغيره أن هذا هو الحق من الله تعالى الذي لا ريب ولا شك فيه البتة، ومن كَذَّب به فقد خسر الخسارة التي لا عوض لها. وقال الإمام القرطبي: الخطاب في هاتين الآيتين للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد غيره(٣) وهو يفيد تعظيم وصدق ما نزل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، بأنه من الله تعالى. وكذلك إثبات نبوته عليه الصلاة والسلام.

ثم يبين الله تعالى حال الممتنعين عن طاعته عَزَّ وجل وعن الاستجابة لما جاءهم من آيات وحجج وبراهين، فإن معاقبتهم هي من جنس فعلهم من الامتناع ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ فإن الذين وجبت عليهم ﴿ كَلِمَتُ رَبِّكَ ﴾ أي: قوله سبحانه وتعالى، سواء باللعنة، أو بنزول

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٨٩/١٢)

(٢) البخاري، الجامع الصحيح (١٥٣/٣) برقم (٤٣٠٤)

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٤٤/٨)

العذاب، أو بالسخط، أو بالنقمة[١] فثبتت عليهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لا يصدقون بحجج الله تعالى، ولا يقرون بوحدانية ربهم، ولا بأنك من الله تعالى رسول إليهم ﴿وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ ولو جاءتهم كل موعظة وعبرة، فعاينوها، فإنهم لا يؤمنون حتى يعاينوا العذاب الأليم، كما لم يؤمن فرعون وملاؤه، إذ حقت عليهم كلمت ربك، حتى عاينوا العذاب الأليم، فحينئذ ﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ حين لم ينفعه قيله ذلك[٢] فعاقب المجرمين بمنعهم عن التصديق والإيمان بأن حقت عليهم كلمت الله تعالى بأنهم لا يؤمنون، فجازاهم بجنس أعمالهم، فلما امتنعوا منع الله تعالى عنهم ما امتنعوا عنه من الإيمان، لعظيم جرمهم، بمحاربتهم لله تعالى ولرسوله، والصد عن سبيله سبحانه وتعالى.
مما يفيد الحذر من التمادي في المعصية، والتهاون فيها، والاستخفاف بعذاب الله تعالى ومقته.

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾

ينتقل البيان من الله تعالى إلى كشف حال أهل القرى التي أُرسلت لهم الرسل عليهم الصلاة والسلام، وبيان كثرة تكذيبهم للأنبياء، ليكشف سبحانه وتعالى قدر جحود الإنسان، وليدرك النبي صلى الله عليه وسلم حال من قبله من الأنبياء مع أقوامهم، وليكون ذلك تعزيزاً وتقوية له عليه الصلاة والسلام، وليعرف المؤمنون حالة البشر مع من يدعوهم إلى الحق ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ قال الزجاج رحمه الله تعالى:

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٥٥/٤) هي أقوال ذكرها ابن الجوزي رحمه الله تعالى.
(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٩٠/١٢)

فهلا كانت قرية آمنت في وقت ينفعها إيمانها إلا قوم يونس[١] ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ فإن قوم يونس نفعهم إيمانهم بعد نزول العقوبة وحلول السخط بهم، فاستثنى الله تعالى قوم يونس من أهل القرى الذين لم ينفعهم إيمانهم بعد نزول العذاب بساحتهم، وأخرجهم منهم، وأخبر خلقه أنه نفعهم إيمانهم، خاصة من بين سائر الأمم غيرهم[٢] وفي تعميم ذلك مع استثناء قوم يونس ما يبين أن الحكم لله تعالى، وأنه هو الحكيم والحكم سبحانه وتعالى. وذكر ابن كثير في معناها: فهل آمنت قرية بكاملها من الأمم السابقة الذين بعثنا إليهم الرسل، بل ما أرسلنا قبلك يا محمد من رسول إلا كذبه قومه، أو أكثرهم، وأن الغرض أنه لم توجد قرية آمنت بكمالها بنبيهم ممن سلف من القرى إلا قوم يونس، وهم أهل نينوى، وما كان إيمانهم إلا خوفاً من وصول العذاب الذي أنذرهم به رسولهم، بعد ما عاينوا أسبابه، وخرج رسولهم من بين أظهرهم. فعندها جأروا إلى الله واستغاثوا به، وتضرعوا له واستكانوا، وأحضروا أطفالهم ودوابهم ومواشيهم، وسألوا الله تعالى أن يرفع عنهم العذاب، وأُخروا كما قال تعالى ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ وهل في كشف هذا العذاب عنهم يشتمل عذاب الدنيا والآخرة؟ فالذي رجحه ابن كثير رحمه الله تعالى هو قول من قال: يشمل الدارين، لأن الله تعالى أطلق عليهم الإيمان ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ ﴾ والإيمان منقذ من العذاب الأخروي، وهذا هو الظاهر والله أعلم [٣]

ثم يبين الله تعالى أن هذا الذي يحصل من أهل القرى، لا يعني أنه خارج عن إرادته عَزَّ وجل، بل لو أراد لألزم الجميع بالإيمان، ولكن ليجازي كل بعمله، وما كسبت يداه ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾ فلو شاء الله تبارك وتعالى أن يُلجئ ويُلزم الناس أن يؤمنوا قصراً، لألزم جميع من في الأرض كلهم جميعاً من دون استثناء، وأذعنوا لذلك، وأكد ذلك سبحانه وتعالى بتعاقب كلمتي ﴿ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾ لفيد التأكيد، وكمال تحقيق الإرادة فيما لو أراد الله تعالى. فلو شاء الله تعالى أن يلزمهم الإيمان بك أيها النبي لألزم أهل الأرض جميعاً بذلك. ولكن قضت حكمته أن يجازي كل إنسان بما كان منه، قبولاً للحق، أو رفضاً له، وبما أن الله تعالى لم يُكره الناس ويجبرهم على الإيمان، وهو ربهم وخالقهم والقادر على ذلك، فلن

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٤/٥٥) هي أقوال ذكرها ابن الجوزي رحمه الله تعالى.

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٢/٢٩١)

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٤٤٨)

تستطيع أيها النبي أن تكره الناس على الإيمان ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ وفي هذا بيان أنه مهما كان حرصك يا محمد على أن يؤمن الناس جميعاً، فلن يكون ذلك كما تسعى إلى تحقيقه، مما يفيد شدة حرص النبي صلى الله عليه وسلم على إيمان الناس، من أجل إنقاذهم من عذاب الله تعالى، فَيُهوّنُ اللهُ تعالى عليه الأمر، بأنه مهما كان حرصك فلن تستطيع أن تكره الناس على الإيمان الذي هم عازفون عنه. وفي هذا ترهيب وتغليظ للمعرضين عن الإيمان، بأن عليهم الاستجابة لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم قبل أن يبادرهم العذاب. وفي ذلك فائدة للداعية إلى الله تعالى، بأن عليه البلاغ والإرشاد، وأنه لا يستطيع إلزام الناس بما يحب لهم.

ثم يبين الله تعالى حال من يؤمن، فإن إيمانه ليس بخارج عن إذن الله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ فلو أراد الله تعالى لنفس أن لا تؤمن، لامتنعت عن الإيمان. مما يبين أنه لا يحدث في ملك الله شيء إلا بإذن من مالك الملك سبحانه وتعالى، فإن للإنسان مشيئة وإرادة، ولكن هذه المشيئة والإرادة بإذنه سبحانه وتعالى، ليتبين كمال ملكه وعظيم سلطانه سبحانه وتعالى، وأن يربط الإنسان قوته وحوله بالله عَزَّ وجل، وأن يسأل الله تعالى فيما ينوي فعله، أو يتجنبه من الشر، فلو لم يشاء الله تعالى ويأذن لعبده، لامتنع عليه ما يطلبه أو يدفعه، حتى وإن توفرت القدرة على ذلك.

ثم أخبر الله تعالى بمواقع وأسباب سخطه ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ فإن الله تعالى يجعل سخطه وعذابه على الذين لا يعقلون عن الله تعالى أمره ونهيه، وحججه ودلائل توحيده، ليفهم جنس الإنسان عامة والمؤمنون خاصة أنه لا يحدث شيء إلا بإذنه، ولا يؤمن إنسان إلا بإذنه تبارك وتعالى، وأن سخطه وعقابه لا يحل إلا على أولئك الذين لا يعقلون أمر الله تعالى ونهيه، ولا يستجيبون له سبحانه وتعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم. مما يفيد التنبيه والتحذير، وبيان عدله في حكمه، وسلامة المطيع من سخطه وعقابه عَزَّ وجل.

ثم يوجه الله تبارك وتعالى عباده إلى آياته الباهرة، الدالة على ربوبيته وألوهيته ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ يوجه الله سبحانه وتعالى انتباه عباده إلى دلائل وحدانيته وربوبيته، وذلك بالنظر إلى السماوات والأرض وما فيهن من الآيات الباهرات، وجاء التوجيه الكريم من خلال توجه نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهم ذلك ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ ﴾ ليشمل النظر بالأبصار، والنظر بالبصيرة، فبالبصر للمشاهدة الحسية، وبالبصيرة للمشاهدة القلبية، بالتفكر والتأمل. وجملة ﴿مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ تستجمع جميع الموجود في السماوات والأرض، مما يحسه ويشاهده

الإنسان، وسواء ما على منه وارتفع، أو مما نزل وانخفض. فتأملوا وتفكروا فيما يدلكم على جواب هذا السؤال الاستفهامي ﴿مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من وحدانية الله تعالى وألوهيته وربوبيته. فيا أيها الناس تفكروا وتأملوا الذي في السماوات والأرض، فكل شيء آية لوحدها، وحجة وبرهان، من الليل والنهار والشمس والقمر والكواكب، وارتفاع السماء عن الأرض، واجتماع السحاب، وتصريفه، والبرق والرعد، واختلاف الليل عن النهار، وولوج بعضهما في بعض بتدرج لطيف ودقيق، فيطول هذا ويقصر ذاك، في ترتيب بديع، وكذلك ما في الأرض من الصحاري والجبال والشعاب والأودية، والظلال والممرات بين الجبال، ولأشجار والنباتات، والزهور والورود، والحيوانات، واختلاف أشكلها وأنواعها، وما سخره منها للنقل والحمولة والفرش والأكل، مما يعجز عن حصرها الإنسان. فكل ذلك لمن تعقل يدل على ربوبيته ووحدانيته، وأنه لا معبود بحق إلا الله عَزَّ في علاه.

فهي آيات وحجج على أن لهذا الكون خالق، وهو الله سبحانه وتعالى، وأنه لا يستحق العبادة غيره، وأن الأمر كله بيديه سبحانه وتعالى، وأنه حكيم بديع، قاهر فوق عباده، وهو السميع البصير الرحمن الرحيم. ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ فإذا كان هذه الآيات العظيمة لا تجدي في دفع الإنسان للإيمان وترك الكفر، فأي شيء يقنع ويجدي من الآيات والنذر التي يحملها المرسلون عن الله تعالى لقوم يكفرون ولا يؤمنون، فيمتنعون عن الاستجابة لجميع تلك الآيات، ولأولئك الرسل، وخاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم. مما يفيد أن في الكون دلائل الإيمان التي تبدد غشاوة الكفر وسواده، وأنها وسيلة حسية لتعليم الناس، وغرس الإيمان في قلوبهم.

ثم يُورد الله سبحانه وتعالى سؤال تعجب عن هؤلاء الصادين الكافرين ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ﴾ فهل ينتظر هؤلاء الكفار الممتنعون عن الاستجابة للنبي محمد صلى الله عليه وسلم إلا مثل ما وقع من العذاب على الكفار الذين سبقوهم من الأمم السالفة، التي جاءتهم رسلهم بالبينات فكفروا وامتنعوا وصدوا عن سبيل الله تعالى، فأخذهم الله تعالى بعذابه، وهو سؤال استنكار لحالهم الذي لا يتجاوب ولا يتفاعل مع قوة الآيات والحجج والبراهين، وكذلك مع ما أُنذروا به من نبيه محمد صلى الله عليه وسلم من التخويف والترهيب والوعظ وضرب الأمثال، وقصص الأمم السابقة في تفصيل مبين، فماذا ينتظر هؤلاء ليؤمنوا، إلا أن يأتيهم العذاب الذي أصاب من قبلهم من الأمم التي كذبت الرُّسُل، فإن كانوا ينتظرون ذلك، فخاطبهم يا أيها النبي بقوله تعالى ﴿قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ فقل يا أيها النبي لهؤلاء الكفار: تربصوا وانتظروا وَعْدَ ربكم فإني معكم من المنتظرين، وهذا على سبيل التقريع والتهديد، بما يفيد الوعيد الشديد من أن يصيبهم من العذاب مثل ما أصاب السابقين من الأمم المكذبة بآيات الله تعالى، وبالنذر التي حملها المرسلون لهم. وهو سؤال استنكار وتقريع وتهكم بحالهم الذي يستثير الإعجاب من كفرهم

وتماديهم في الكفر والطغيان، وبالرغم من أن حال الجميع هو الانتظار، إلا أن انتظار النبي صلى الله عليه وسلم هو انتظار نصر وفرج، وانتظارهم هو انتظار عذاب أليم واستئصال لهم.

ثم يخبر الله تعالى أن هذا العذاب إذا نزل فإنه سيحصره بقدرته عَزَّ وجل على الكافرين، وأما الرُّسُل ومن معهم من المؤمنين فإن الله تعالى منجيهم ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ ثم يؤكد تبارك وتعالى نجاة الرُّسُل والمؤمنين بقوله عَزَّ وجل ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ فذلك الإنجاء من العذاب هو حق قد قضاه ربكم بأن ينجي المرسلين والمؤمنين، فأوجبه الله تعالى على نفسه العظيمة، بما يفيد وجوب تحققه، وأنه سيتحقق العذاب على الكافرين، وسيحصره عليهم دون المؤمنين. وفي هذا بشارة للرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين بأنهم ناجون من ذلك العذاب بلطفه وقدرته، كما أن في قوله تعالى ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ مزيد تكريم وعناية للمؤمنين ونبيهم صلى الله عليه وسلم، بأن أصبحت منزلة نجاتهم حق على الله تعالى، قد أوجبها الكريم اللطيف.

﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي شَكّٖ مِّن دِينِي فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمۡۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنۡ أَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ فَإِن فَعَلۡتَ فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾

يوضح الله تعالى للمشركين وغيرهم من الكافرين التباين بين دين الله تعالى القائم على التوحيد وبين ما يعبدون من دونه جَلَّ جلاله، فيخاطب الله تعالى عباده من خلال توجيه الأمر للنبي صلى الله عليه وسلم بما يقوله للناس الذين يعبدون غير الله تعالى ﴿ قُلۡ ﴾ قل يا أيها النبي صلى الله عليه وسلم للناس ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي شَكّٖ مِّن دِينِي ﴾ فناديهم بياء النداء، الذي يحمل دلالة لفت الانتباه، وإرعاء السمع لما بعده من بيان. بما يفيد تعظيم الأمر الذي ينادي إليه. وليكن هذا النداء للناس جميعاً ﴿إِن كُنتُمۡ فِي شَكّٖ مِّن دِينِي ﴾ فإن كنتم في ريبة وشك من حقيقة ديني الذي أُوحد فيه ربي، مخلصاً له الدين ﴿فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ فإني ثابت على ما جاء عن الله تعالى بتوحيده، وأني بريء من كل معبود دونه، فلا أعبد ما تعبدون من دونه من المعبودات، من الأصنام والأوثان، وغيرها من المعبودات، بما يفيد أنني على يقين من صحة

ما أعبد، وفساد ما تعبدون من دونه سبحانه وتعالى، وفيه لفت نظرهم إلى خطأ دينهم، من تعدد معبوداتهم من دون الله تعالى، ومع هذا يختلفون فيها، وفي هذا تأكيد واضح لخطأ ما تعبدون من دون الله تعالى، وتأكيد انتفاء أن يتوجه صلى الله عليه وسلم لأي معبود من دون الله عَزَّ وجل، وكذلك فيه تيئيس لهم أن يعبد غير الله تعالى فيما لو فكروا وحاولوا صد النبي عن دينه صلى الله عليه وسلم، فلن ينالوا مقصدهم ومطلبهم، وفيه كذلك تعريفهم بخطأ ما هم عليه من الشرك، وتعدد الآلهة.

ثم يوجههم إلى الحقيقة التي يدركونها ويدركها كل حي، وهو الموت ﴿وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ فأتوجه بالعبادة للذي يتوفاكم، فأخصه بذلك، ولا أعبد غيره من المعبودات، وهو تأكيد النفي من أن يعبد غير الله تعالى، مع بيان عظيم قدرة الله عَزَّ وجل التي تفقدها معبوداتهم، فآلهتكم لا تقبض أرواحكم لتموتوا، سواء فيما يتعلق بالموتة الصغرى حين المنام، أو بالموتة الكبرى، حين مفارقة الحياة، بمفارقة الروح للجسد. ولكن أعبد الله تعالى الذي يقبض الأرواح، فلا تستطيعون أنتم ولا آلهتكم ردها، أو منع خروجها، أو تأخيرها. وهي لفتة لعظيم ما يخافه الإنسان ويهابه وهو الموت. فردهم للمحسوس الذي لا يستطيع عليه كائن من كان من المخلوقين مهما كان أمره، فيلفت انتباههم إلى أن الذي يتوفاكم ويُنهي وجودكم هو الذي بدأكم. فكيف تتوجهون إلى غيره من الأصنام التي ليس لها شيء من ذلك؟ وكذلك فيه تذكير بخاتمة الحياة، بأنه الموت الذي لا رجعت بعده للدنيا.

ثم يتوجه البيان الكريم إلى أن الذي أمر بتوحيده وإفراده بالعبادة هو الله تعالى ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فإن الله تعالى هو الذي أمرني أن أكون واحداً من المؤمنين الْمُصَدِّقِين به سبحانه وتعالى، وفي هذا إشارة إلى أنه عليه الصلاة والسلام تلقى الأمر من الله تعالى بأن يكون من المؤمنين ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بما يثبت نبوته صلى الله عليه وسلم. وفيه كذلك التعريف بفضل ومنزلة المؤمنين.

ثم يؤكد أنه صلى الله عليه وسلم مأمور بالاستقامة في الدين والثبات عليه ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ فأقم عملك ونفسك بإقبالك على ما أُمرت به من الدين. فقد أمرني الله تبارك وتعالى أن أكون مستقيماً في توجهي إليه وحده لا شريك له، فأوجه وجهي في قبلتي وعبادتي وطلبي ودعائي إليه ﴿حَنِيفًا﴾ أي: قويماً، مستقيماً غير مائل إلى أي دين، وأي معبود غير الله تعالى. ثم يؤكد الأمر بالنهي عن الشرك ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ فلا أكون مشركاً مع الله تعالى، بل موحداً له، ومستقيماً في عبادتي وتوجهي.

وفيه بيان أن الشرك مخالف لمراد الله تعالى، ومخالف لحقيقة العبادة والتوحيد. فإن مما أمرني به سبحانه وتعالى هو قوله عَزَّ وجل ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ﴾ فلا أدعوا غير الله تعالى، فكل أحد غيره عَزَّ وجل لا ينفع ولا يضر إلا بإذن الله تعالى. وفي هذا إثبات أن كل ما هو من دون الله تعالى فإنه لا يحقق نفعاً بذاته ولا يدفع ضراً، ولا يضر أحداً، فلا تتوجه إلى تلك التي لا تنفع ولا تجلب نفعاً، ولا تضر، ولا تصد وتمنع ضرراً، فلا تتوجه بالعبادة ولا الدعاء ولا الطلب إلا لله العزيز الحكيم، وأن الذي يحقق النفع ويدفع الضر والبلاء هو الله تعالى وحده لا شريك له.

ومن شدة وجوب الالتزام بذلك أنه فيما لو فعل ذلك عليه الصلاة والسلام لدخل مع الظالمين الذين يضعون الشيء في غير موضعه ﴿ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ وفي هذا تعريض لكل من تَوَجَّه لغير الله تعالى بالعبادة بأنه من الظالمين لأنفسهم، بأن وضعوا أنفسهم في غير الموضع الصحيح الذي يجب أن يكونوا عليه من التوحيد، فوضعوا أنفسهم في ظلم الكفر والشرك. وفي هذا شديد التحذير ﴿ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فإن محمداً صلى الله عليه وسلم، صاحب المنزلة الرفيعة والمكانة العظيمة عند ربه عَزَّ وجل، لو حصل منه الشرك الذي ينهاكم عنه ربكم تبارك وتعالى، لأصبح مع مقامه الرفيع من الظالمين. وهذا من أشد التحذير كقوله صلى الله عليه وسلم (لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها)[١] وهذا غاية التعظيم والتحذير والتهويل من خطورة الشرك، وغضب الله تعالى على من يشرك به سبحانه وتعالى، وأن الله تعالى لا يقبله من أي عبد من عباده مهما كانت منزلته.

﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾

لقد أخبر الله تعالى في الآيات السابقة بطلان عقيدة الشرك والمشركين، ثم يخبر عَزَّ وجل عن عظيم قدرته، بأنه حال إرادة الله تعالى الضر بأحد فلا يستطيع أن يزيله أحدٌ غيره، وإن أراد أحداً بخير فلا يستطيع أحدٌ أن يمنعه، بما يبين ويؤكد أن الأمر كله له وحده لا شريك له، بما يبطل مزاعم المشركين من أن الأصنام تضر وتنفع، وبالتالي فإن هذه الآيات الكريمة تقرر مضمون ما قبلها، فوجه تبارك وتعالى الخطاب للنبي صلى

---

(١) البخاري، الجامع الصحيح (١٥٣/٣) برقم (٤٣٠٤)

الله عليه وسلم ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ﴾ فإن أراد الله تعالى الضر بك أيها النبي فلا يستطيع أن يزيله عنك أحد غيره تبارك وتعالى، وإن أرادك بخير، فلا يستطيع أحد أن يحول بينك وبين ما أراده لك من الخير.

وفي توجيه هذا البيان من الله تعالى إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ما يفيد: إذا كان هذا هو حال النبي صلى الله عليه وسلم مع شرف منزلته، لا يستطيع دفع ضر بأي وسيلة إلا من الله وحده لا شريك له، فإن غيره لن يكون أحسن حالاً وقدرة منه عليه الصلاة والسلام، لأن منزلة غيره صلى الله عليه وسلم لا ترتقي إلى رتبته ومنزلته عليه الصلاة والسلام. فإن أوقع وأنزل الله تعالى بعبده ضراً لم يستطع أحد أن يزيله ويكشفه إلا هو سبحانه وتعالى ﴿ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ﴾ وأن أراد بك خيراً لم يستطع أحد أن يمنعه كائن من كان، وكلمة خير، عامة شاملة، ومستوعبة لكل خير، قليله وكثيره، ونوعه ومصدره.

ومن دقة البيان أن قابل الخير بالفضل ﴿ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ﴾ لأن الفضل يكون تفضلاً وهبة وعطاء من غير مقابل، أو استحقاق نتيجة أعمالهم، فما يتحقق لك من خير فهو فضل من الله تعالى، وليس واجب التحقق. ليفيد أن كل خير يصيب العبد هو فضل محض من الله تعالى، وليس استحقاقاً واجباً ومفروضا. وتفيد دلالة ﴿ يُرِدْكَ ﴾ التحكم والإرادة والمشيئة والاختيار من الله تعالى، فيما إذا أراد هو سبحانه وتعالى، مما يفيد أن ما يصيب الإنسان من خير فهو بإرادة محضة من الله تعالى، وأنه مهما بلغت أسباب تحصيلها فلن تكون إلا إذا أراده الله تعالى، مما يستلزم الدعاء والإذعان لله تعالى، وأنه حال تحصيلها يجب على العبد أن يحمد الله تعالى، وينسبها لمن تفضل عليه من فضله وكرمه وجوده عَزَّ وجل. لأن الخير هو جزء من فضله الواسع العظيم.

ومن كمال مشيئته وإرادته سبحانه وتعالى، أنه هو الذي يتفضل به على من يشاء من عباده ﴿ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ فيكون امتناناً محضاً من الله تعالى، وله اختيار وتفضيل من يشاء من عباده بما يشاء من الخير، نوعاً وقدراً. فليس لأحد في ذلك حق الاعتراض، مما يفيد أن على المؤمن ألا يزدري ولا يتنقص ولا يحسد أحداً قد أفاض الله تعالى عليه من فضله، أو أمسك عنه قدراً من فضله. فإن حكمة الله تعالى في العطاء والمنع أعظم وأرفع من فكر الإنسان وتقييمه وحكمه على نفسه وغيره. وفي هذا ما يفيد الترغيب والترهيب، والالتجاء إلى الله تعالى في كشف الضر وتحقيق الخير.

ثم يختم الله تعالى هذا النص العظيم الكريم بجلالة أسمائه وصفاته العظيمة ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ فهو الذي يغفر ذنوب عباده، وهو الذي يرحمهم، وفي هذا النص الكريم استحثاث للعباد بطلب المغفرة من

ذنوبهم، وطلب الرحمة والخير منه جَلَّ جلاله، فإنه يغفر ويرحم بكريم العطاء، فلو شاء لما تجاوز عن سيئات المسيئين إذا تابوا، ولا غفر لهم، ولا رحم من تمادى في المعصية إذا استغفر وأناب ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ فهو المتصف بالمغفرة والرحمة. بل وردت المغفرة والرحمة بصيغة المبالغة التي لا حدود لها. وهذا من عظيم رحمته تبارك وتعالى.

ويختم الله تعالى سورة يونس عليه السلام بآيتين شاملتين وجامعتين لما يجب على العباد، فجاء الاستهلال فيها بأن أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بالنداء إلى الناس ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ فافتتح النص الجليل بشد الانتباه إلى ما أمر الله تعالى به نبيه ورسوله صلى الله عليه وسلم بإبلاغه للناس جميعاً ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ وفي هذا النداء للناس جميعاً ما يفيد لفت الانتباه بكل الجوارح نحو المقول العظيم الذي يقوله الرسول الأمين صلى الله عليه وسلم عن رب العالمين، بأنه قول فصل وأمر قاطع ﴿قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ فقد جاءكم الحق الواضح والظاهر من ربكم. وأكد القول بحرف ﴿قَدْ﴾ الذي أفاد موقعه من السياق أنه قد تحقق وتأكد أن قد تم إبلاغكم بالحق الذي جاءكم من ربكم سبحانه وتعالى، وتحقق أنكم قد سمعتم وأُنذرتم به ﴿قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ فإن القرآن العظيم، وهذا الدين القويم الذي جاءكم به هو من عند ربكم سبحانه وتعالى، وأنه الحق الذي لا مرية ولا شك ولا ريب فيه ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ فمن اهتدى بالإيمان به، واتبعه وألزم نفسه به، فإنما ذلك عائد نفعه له ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ وأما من زاغ عنه، وتركه ولم يهتد به، فإنما يعود ويرجع وبال ذلك الضلال على نفسه. وقل لهم يا أيها النبي ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ فما أنا بمسؤول عن حالكم، وعَمَّا تتخذونه وتقررونه تجاه ما أمركم الله تعالى به، فلست موكل بكم حتى تكونوا مؤمنين، وإنما مسؤوليتي في إبلاغكم بما نزل من ربكم إليكم، فالمهمة محصورة في الإبلاغ.

ثم يأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بما يلزمه ويقوم به، وبما يكون عليه ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ فإن ما يجب أن تقوم به أيها النبي هو اتباع ما يوحى إليك من الله تعالى ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ فتمسك بما أنزله الله تعالى عليك، وأوحاه إليك. وكذلك عليك بالصبر ﴿وَٱصْبِرْ﴾ واصبر على اتباع ما أوحي إليك ربك، واصبر على تبليغه للناس، واستمر على ذلك، واصبر على من خالفك من الناس ﴿وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ

﴿يَحۡكُمَ ٱللَّهُ﴾ فليكن صبرك مستمر حتى يفتح الله بينك وبينهم، ويقضي بينك وبينهم بما يحكم الله تعالى به، ويقضيه في شأنكم ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ فإن ربكم هو خير من يحكم في حكمه، فقد نصر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم يوم بدر، وهم قليل، وهزم عدوهم، وهم ثلاثة أضعاف المؤمنين عدداً، وقتل صناديدهم، وأسر الكثير منهم، وفي غيرها من الغزوات والسرايا. وتوالت الفتوحات، وانتشر دين الله تعالى في الأرض.

وفي هذا النص الكريم ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ ثناء من الله تعالى على ذاته الجليلة العظيمة، وعلى حكمه، وعدله، وإنصافه، بما يفيد أن العدل يقتضي معاقبة الظالم على ظلمه، ومكافأة المحسن على إحسانه، وأخذ الحق للمظلوم من الظالم وافياً غير منقوص. وفي هذا تحذير وترهيب لكل صاد عن الحق بما سينالهم من حُكم الله تعالى وعدله وقضائه من الجزاء، وفيه بشارة للنبي صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين بما سينالهم من الخير، وما سينال عدوهم من الاقتصاص منهم.

وكذلك في هذا منهجية للداعي إلى الله تعالى، بأن يتمسك بما أنزل الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم، وأن يصبر على الطاعة والتمسك بما جاء عن الله تعالى، وأن يصبر على دعوة الناس إلى الحق، ويعلم أنه ليس وكيلاً على أحد، وأنه ليس مُلْزَم بهداية الناس بالقوة، بل مهمته التبليغ والسعي والحرص على الناس بالخير، والصبر على ذلك.

فتم بحمد الله إتمام سورة يونس، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتُب علينا إنك أنت التواب الرحيم.